أعلام مؤرخي العرب والإسلام

أبو الحسن المسعودي

المؤرخ والجغرافي

إعداد
الدكتور حسين عاصي
أستاذ في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

أعلام مؤرخي العرب والإسلام

أبو الحسن المسعودي

المؤرّخ والجغرافي

إعداد

د. حسين عاصي

أستاذ في الجامعة اللبنانية



دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت. لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

وقف العلماء من مؤلفات المسعودي القيّمة على رجل الدنيا وعلاّمتها ، وإن فيها لغَناء للناس عن أن يتساءلوا عن فضل الرجل وعلمه الواسع ، وإحاطته التي لا حدّ لها ، مع فقهه وأمانته فيما ينقل من أخبار . ولن نصل من استعراض كتبه الباقية على أقل من أنه : عالم ، فلكي ، حاسب ، جغرافي ، فقيه ، محدث ، جَدِل ، نظّار دياني ، مؤرخ ، ناسب ، إخباري ، فيلسوف ، أديب ، راوية ، وأنه كان ملماً بعدة لغات كثيرة كالفارسية والهندية واليونانية والرومية والبيزنطية ، وكان ذا حظ وافر من مختلف الثقافات التي وصل إليها علم الإنسان منذ بدأ الله الخلق إلى عصره . والمسعودي غريب فيما ينقل ، مبدع فيما يصف ، قصاص بارع ، ذو أسلوب جذاب وعبارة ممتعة ، وقد تتلمذ له كثير من العلماء والمؤرخين وأكثروا من النقل عنه والتوثيق له . وهو كثير التنقل بالقارىء ، من تاريخ إلى علم ، إلى فقه ، إلى أدب وشعر ، إلى فلسفة ونقد ، إلى غير ذلك ، مما يدل على أنه ذو ثروة علمية فذة . ويظهر أن الثروة العلمية التي امتاز بها المسعودي لم يدونها كلاً في كتبه الثلاث الباقية

فحسب ، بل بعثرها في كتبه ، وفرّقها في مصنفاته تفرقة عادلة وقسمة راعى بها أن يكون في كل مؤلف منها نصيب منها يحبّبه إلى القراء ويرفع قدره ومنزلته بين العلماء . فكثيراً ما يرى الباحث في كتب المسعودي أنه يعرض إلى إجمال بعض الموضوعات الطريفة ، والأحاديث الغريبة في مختلف العلوم والفنون في هذين الكتابين يُلم به إلمامة سريعة ، ثم يذكر أنه بسطه مفصلاً وذكره بتمامه في كتاب من كتبه فلا يزال الباحث يبحث عن ذلك الكتاب ضمن ما طبع أو لم يطبع ثم لا تكون نتيجة هذا البحث إلاّ الخيبة والفشل والتحسر الدائم على ما فقد وضاع من تراث .

عن المسعودي المؤرخ والجغرافي ستنعقد فصول هذه الدراسة آملين الوفاء بالقصد .

الفصل الأول

ملامح التاريخ والتأليف التاريخي في عصر المسعودي

١ ـ الحياة السياسية في الدولة العباسية :

عاش المسعودي في العصر العباسي الثاني ، وقد جرت عادة المؤرخين العرب على تقسيم عهد الدولة العباسية إلى عصرين متميزين : العصرالعباسي الأول وقد استمر قرناً من الزمن (١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ) وهو فارسي الصبغة ، إذ قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس الذين عملوا على إسقاط الدولة الأموية التي اعتزت بالعروبة وتعصّبت للعناصر العربية . ولذا اتخذت الدولة العباسية بلاد العراق مركزاً للحكم واعتمدت على العناصر الفارسية في السياسة والإدارة والحرب ، واصطبغت الحياة الاجتماعية والثقافية بصبغة فارسية متميزة . أما العصر العباسي الثاني فيبدأ سنة ٢٣٢ هـ ، واعتاد المؤرخون أن يقسموه إلى فترات متميزة ، فيبدأ بعصر نفوذ الأتراك ثم عصر إمرة الأمراء ، ثم العصر البويهي ، وأخيراً العصر السلجوقي . وقد عاصر المسعودي العصرين الأولين ومطلع العصر الثالث .

عصر نفوذ الأتراك : ويمتد من ٢٣٢ ـ ٣٢٤ هـ ، وقد عانت

الدولة العباسية خلال هذا العصر من الضعف والانحلال السياسي والإداري ، نتيجة ازدياد نفوذ الأتراك واستبدادهم بالسلطة دون الخلفاء العباسيين ، فكان الأتراك يختارون الشخصيات الضعيفة من بين أبناء الأسرة العباسية ليولوهم الخلافة . حتى إذا لمسوا من بعضهم ميلاً إلى التمسك بحقوقهم في الحكم والسلطة عزلوهم أو قتلوهم ، أو سملوا أعينهم . كما تميز هذا العصر بازدياد نفوذ النساء في قصر الخلافة ، وتدخلهن في شؤون الدولة ، وبتعدد الوزراء وتنافسهم على الحكم وقصر مدة حكمهم ، الأمر الذي أدى إلى اضطراب الأحوال الداخلية في الدولة العباسية وانتشار الفوضى والقلاقل في بغداد .

كان مولد المسعودي حوالي ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م في أواخر عهد الخليفة العباسي المعتضد بالله الذي تولى الخلافة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م . وقد وصف المسعودي هذا الخليفة فقال عنه إنه كان « سريع النهضة عند الحادثة ، قليل الفتور ، يتفرد بالأمور ، ويمضي تدبيره بغير توقف ، ولي الأمر بضبط وحركة وتجربة ، وكفَّ من كان يتوثّب ويتشغّب من الموالي » .

أحسن المعتضد معاملة الأسرة العلوية ، وكان أسلافه من الخلفاء العباسيين يسيئون معاملتها ولكن حاشية الخليفة ما لبثت أن نصحته بالعدول عن هذه السياسة السمحة حتى لا تضيع هيبة العباسيين وتخرج الخلافة منهم إلى العلويين . وتميز عصره

بالحزم والعدل ولذا نال محبة رعاياه ، فقد أصدر أوامره بإبطال ديوان المواريث ، ومنع الورّاقين من بيع كتب الفلسفة وما شاكلها ، كما منع القصّاصين من الجلوس في الطريق .

أتم المعتضد ما بدأ به والده الموفق في تقوية كيان الدولة العباسية ، فقضى على الاضطرابات الداخلية ، إذ كانت أيامه « أيام فتوق وخوارج كثيرين »[١] . ففي ٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م قاد المعتضد جيشاً لقمع عصيان بني شيبان ، وقد نجح في إرهابهم فالتمسوا منه الصلح وبذلوا الرهائن[٢] . وفي السنة التالية سار إلى ناحية الجبل ، ومر في طريقه إلى الموصل حيث عمل على تهدئة الأحوال بعد أن هزم حمدان بن حمدون الذي كان قد اتفق مع زعيم الخوارج في الجزيرة وخرج على الخلافة[٣] . وفي سنة ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م تمكن المعتضد من القضاء على ثورة الخوارج في الجزيرة بزعامة هارون الشاري[٤] . وعندما استفحل أمر القرامطة في سواد الكوفة وانضم إليهم الأعراب والموالي والأنباط أنزل بهم المعتضد ضربات قوية حتى أخمد حركتهم في نفس الوقت الذي حاول فيه القضاء على حركتهم

---

(١) ابن الطقطقي : الفخري ص ١٥٦ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٥/٦٠٦ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧/١٦٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٧/١٦٦ - ١٦٧ .

(٤) الطبري ٥/٦١٣ ، ابن الأثير ٧/١٧٠ .

في اليمامة والبحرين[1] .

اتبع المعتضد مع الأمراء المنفصلين عن الدولة سياسة المساومة واللين ، واستفاد من الفرص السانحة لاخضاعهم . وقد نجح في تحسين صلاته بالطولونيين ، إذ تصالح مع خمارويه بن أحمد بن طولون وتزوج ابنته[2] . كما وافق على الاعتراف بشرعية حكم هارون بن خمارويه على الشام ومصر ، بعد أن تنازل عن أعمال قنسرين والعواصم والتزم بإرسال جزية سنوية قدرها أربعمائة وخمسون ألف دينار[3] واستغل المعتضد ، الخصومة القائمة بين آل أبي دلف الذين كانوا شبه مستقلين عن الدولة العباسية في منطقة الجبال ، فضم تلك المنطقة ثانية إلى الدولة العباسية[4] . كما أنه استغل الخصومة بين الصفاريين والسامانيين[5] ، فتخلص من الصفاريين وجعل علاقته بالسامانيين ودية واعترف لهم بشرعية حكمهم ، مقابل اعترافهم بسيادته عليهم[6] .

واهتم المعتضد بإصلاح الوضع المالي ، فاعتنى بتحسين

---

(١) الطبري ١/٦٠١ـ٦٠٣ ، المقدسي ٦/١٢٦ ، ابن الأثير ٧/١٥٩ ، ١٧٤ ، ١٨٢

(٢) الطبري ٥/٦١٠ـ ٦١١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٢/١٧٧ .

(٣) الطبري ٥/٦٢٨ ، ابن الأثير ٧/١٧٥

(٤) ابن الأثير ٧/١٧١ ، الدوري : دراسات ص ١٨٨ .

(٥) الطبري ٥/٦٣٢ ، ابن الأثير ٧/١٧٨ ، ١٨١ .

(٦) ابن الأثير ٧/١٨٤

نظام الري وبحفر القنوات ، كما اعتنى بالمزارعين وحاول مساعدتهم بتسليفهم الأموال لشراء البذور والحيوانات[1] . وفي بداية ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م أمر المعتضد بتعميم منشور إلى جميع عمال الخراج في الدولة « بترك افتتاح الخراج في النيروز الذي هو نيروز العجم ، وتأخير ذلك إلى اليوم الحادي عشر من حزيران »[2] ليتفق ذلك مع موعد نضج الزروع .

ويبدو أن للوئام بين القوة الإدارية والجيش أثراً في استرجاع الخلافة عزها[3] غير أننا نحس بتوسع نفوذ بدر غلام المعتضد ، الذي أصبح « صاحب المملكة والقيِّم بأمر الخلافة . . وإليه سائر المعاون[4] في جميع الآفاق وإليه أمر الجيوش وسائر

---

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ٨/٦٦ .
الصابي : تاريخ الوزراء ٣٤٩ .

(٢) الطبري ٥/٦١٠ ، ابن الأثير ٧/١٦٧ .

(٣) الدوري : دراسات ١٨٩ .

(٤) المعاون : جمع معونة ، وصاحب المعونة هو الأمير دون الحاكم فكأنه مُعين المظلوم على الظالم . وكان هذا المنصب يضم عادة إلى منصب صاحب الجند والحرب ، وكثيراً ما كان يطلب إلى أصحاب المعاون مساعدة القضاة والحكام بما يقضي بلمّ شمل الأمة وتحقيق الصلاح في تنفيذ القضايا . وقد أصبح للمعاون في القرن الخامس الهجري ديوان يسمى دار المعونة ولهم حبس المعونة .
ـ الماوردي : الأحكام السلطانية ٢٢٧ ، الجرجاني : التعريفات ٣٣٤ ، القلقشندي : صبح الأعشى ١٠/١٥٠ .

القواد »[1] ، غير أن بدراً المعتضدي هذا كان يخلص لسيده ولا يزج نفسه في مشاكل السياسة ، كما أن المعتضد كان يتحلى بالحزم والكفاية والعدل مما منع احتمال تدخل الجيش أو سيطرته .

تولى المكتفي الخلافة بعد وفاة والده[2] . ويبدو أنه اتّبع سياسة أكثر ليناً من والده ، ولكن من جهة أخرى لم يكن له حزم والده ، فوقع تحت تأثير وزرائه والمقربين إليه وخاصة مولاه فاتك[3] .

جابه المكتفي في السنة الأولى من خلافته مجموعة ثورات قام بها القرامطة في بادية الشام وسورية[4] ، ومما زاد من خطورتها التحاق إسحاق الفرغاني أحد قادة الجيش بهم وإعلانه الخروج على طاعة الخلافة[5] . مما اضطره إلى تجهيز الجيوش وقيادتها بنفسه ، حيث اتخذ من الرقة قاعدة له ، سيَّر

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ٤/٢٣٢ .

(٢) توفي المعتضد بالله في ٢٣ ربيع الآخر ٢٨٩ هـ/ ٩٠١ م . وكان المكتفي حينئذ بالرقة ، فكتب إليه الوزير بالأمر بعد أن أخذ له البيعة ببغداد . وقد بادر المكتفي إلى أخذ البيعة لنفسه على من معه . ثم انحدر إلى بغداد .
- ابن الجوزي : المنتظم ٦/٣٢ ، الكندي : الولاة والقضاة ٢٤٣ .

(٣) الدوري : دراسات ص ١٨٩

(٤) المسعودي : مروج الذهب ٤/٢٨٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٨٥ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ٧/١٨٧ .

منها الجيوش ، فتمكن من القضاء على خطر القرامطة وأعاد سورية إلى جسم الدولة العباسية[1] .

وفي ٢٩٢ هـ/ ٩٠٤ م خرج هرون بن خمارويه على الاتفاق الذي سبق أن عقده والده مع المعتضد[2] . فجهز المكتفي جيشاً تمكن من إرجاع مصر إلى سلطة الدولة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٤ م[3] وخلال نفس الفترة وثق المكتفي علاقته بأمراء الأطراف ، وأكّد سلطة الخلافة عليهم . ففي سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٢ م وجه إلى إسماعيل بن أحمد الساماني بخلع وعقد له على الري[4] . كما أنه خلع على أبي العشائر أحمد بن نصر ، وولاه طرسوس ، بعد أن عزل عنها مظفر بن حاج لشكاية أهل الثغور إياه[5] ، غير أنه عيّن الأخير في السنة التالية والياً على اليمن حيث استمر في ولايته حتى وفاته[6] كما عقد المكتفي لطاهر بن محمد بن عمرو بن الليث على أعمال فارس بعد أن قوطع على أموالها[7] .

---

(١) ابن الأثير : نفس المصدر والصفحة .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ٢٨٦/٤ ، ابن العبري : مختصر تاريخ الدول ١٥٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٢٠٩/٢ .

(٣) الطبري ٦٥٧/٥ .

(٤) الطبري ٦٤٤/٥ .

(٥) الطبري ٦٤٤/٥ .

(٦) الطبري ٦٦٣/٥ .

(٧) الطبري ٦٤٤/٥ .

أدت هذه الاجراءات إلى استعادة الخلافة لأمجادها وعزها ، كما أن العلاقة بين المكتفي ووزرائه كانت تعبّر عن ثقة متبادلة[١] . ثم مرض المكتفي مرضه الذي مات فيه دون عهد صريح مدوّن . وبوفاة المكتفي بالله انتهت فترة من الاستقرار والهدوء النسبي ، عادت فيها إلى الدولة هيبة الخلافة ، واسترجعت فيها البيروقراطية الإدارية أهميتها وفعاليتها وتوقّف الجيش عن التلاعب بسياستها العامة وحصل نوع من التوازن والتلاؤم بين مختلف العناصر وتحسّن وضع بيت المال إلى حد كبير .

ثم تولى الخليفة المقتدر ، في ذي الحجة ٢٩٥ هـ وكان في الثالثة عشرة من عمره . وقد شهد حكمه عودة التصادم بين العناصر المتنفذة وتضعضع سلطان الخلافة حتى انتهى بخضوعها لحكم أجنبي . وهناك ظروف متعددة قامت بدورها في تصديع كيان الدولة العباسية ، منها ضعف المقتدر نفسه ، ووقوعه تحت تأثير الحرم ، وانقسام البيروقراطية على نفسها ، وعودة الجيش إلى التدخل في السياسة وفعاليات القرامطة[٢] .

كان الكتاب منقسمين لأسباب شخصية ولاختلاف الآراء السياسية إلى كتلتين ؛ جماعة آل الفرات وجماعة آل الجراح . ولم يرض آل الجراح بالمقتدر خليفة فقرروا خلعه ومبايعة

---

(١) الصابي : تاريخ الوزراء ص ١٦٢ .
(٢) الدوري : دراسات ١٩٣

عبد الله بن المعتز وحاولوا اغتيال المقتدر ووزيره ، غير أنهم لم يتمكنوا إلّا من الوزير العباس بن الحسن وفاتك مولى المعتضد[1] . واجتمع كثير من الناس في بغداد على مبايعة ابن المعتز الذي وافق على تولي الخلافة . ولم يمتنع عن حضور بيعته إلا علي بن عيسى وخواص المقتدر وغلمانه[2] . إلّا أن حرس المقتدر الخاص وعلى رأسهم مؤنس الخادم صمدوا أمام جماعة ابن المعتز ، دفاعاً عن حق المقتدر والتزاماً بأيمان البيعة له ، إضافة إلى المصالح الشخصية لهم والتي هددت بالخطر ، وقام أفراد حرس المقتدر وحاشيته بهجوم مباغت على مقر ابن المعتز فانهزم أصحابه عنه ، وقد أعقب ذلك هياج عام في بغداد وانتشرت الفوضى . وقبض على ابن المعتز ومن سعى في أمره من الأمراء والفقهاء وسلموا إلى مؤنس ، فقتلوا إلا أربعة أشخاص منهم علي بن الفرات[3] وعاد المقتدر إلى منصب الخلافة حيث بويع للمرة الثانية[4] .

كان المقتدر مبذراً متلافاً ، كثير الانهماك في الشرب . ولعل تربيته وصغر سنه أوقعاه تماماً تحت تأثير الحرم وبالتحديد والدته

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ٦٩/٦ .

(٢) ابن الأثير ٥/٨ ، ابن الجوزي ٦/٨ .

(٣) تاريخ بغداد ٩٨/١٠ ، تجارب الأمم ٧/٥ ـ ٨ ، المنتظم ٦٩/٦ ـ ٧٠ ، ابن الأثير ٥/٨ ـ ٦ ، ابن العبري ١٥٥ ، النجوم الزاهرة ١٦٤/٣ .

(٤) تاريخ بغداد ٩٨/١٠ ، المنتظم ٦٩/٦ .

شغب التي أصبحت تسمى « السيدة » وقهرمانتها أم موسى الهاشمية ، وكان تأثير السيدة بصورة عامة مضراً ، إذ أنها أفسدت ابنها بتشجيعه على الانهماك في الملاذ وعلى التبذير .

تمكن الوزراء والكتاب في عصر المقتدر أن يلعبوا دوراً أساسياً في توجيه الدولة ، فكانوا هم من يصرّف أمور الدولة مستمدين إرشاداتهم وتوجيهاتهم من السيدة الوالدة[1] وبقية أفراد الحاشية والحرس[2] . ولكن دسائسهم وحسد بعضهم للبعض الآخر كان عاملاً هاماً في تدمير قوتهم وجعلهم عرضة للتبدل والمصادرة ، الأمر الذي أفسح المجال للجيش للتدخل ثانية في إدارة الدولة . وهكذا وقعت الخلافة العباسية مرة أخرى في براثن فوضى الجيش[3] . وتسلط مؤنس ، معتمداً على قوة الجيش ، على الأمور فأخذ يصرفها حسب رأيه .

وفي سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م ازداد وضع الخليفة تأزماً بعد أن ساءت علاقته بمؤنس الذي استشعر خوفاً من الخليفة فأجبره على أن يحلف له على صفاء النية[4] . وهكذا تبدلت الأحوال

---

(١) لعل ما يشير إلى اهميتها ومدى نفوذها ، أنها كانت تجلس للمظالم العامة والخاصة وبحضرتها الوزير والكتّاب والقضاة وأهل العلم .
المسعودي : التنبية والاشراف ٣٢٩ .
(٢) تجارب الأمم ٥/٩٠ ، شذرات الذهب ٢/٢٤٧ .
(٣) حسام السامرائي ، المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية ص ٥٤ .
(٤) ابن العبري ١٥٧ ، مسكويه ٥/١٥٩ - ١٦١ ، عريب القرطبي ١٣٣ .

فعوضاً عن أن يقسم القواد للخليفة يمين الطاعة والولاء ، أصبح الخليفة هو الذي يحلف لهم بصفاء النية . وقد توترت العلاقات مجدداً بين الخليفة ومؤنس في العام التالي ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م فاجتمع القواد والجند مع مؤنس وقرروا خلع المقتدر ، وطالبوه بأن يكتب رقعة بخط يده ، يخلع فيها نفسه ويعترف بعجزه ، ففعل وأشهد على نفسه بذلك ، وسلّم الكتاب إلى القاضي ابن عمر محمد بن يوسف[1] ورشح القاهر للخلافة . لكن هذا العمل لم يقدر له أن يستمر طويلاً فقد عجز عن مواجهة شغب الجند عليه ، مما حمل مؤنس على إعادة المقتدر وإعفاء القاهر . الذي تمكن من تهدئة الأمور سلمياً .

أصبح الجيش بعد هذا الحادث يتصرف بشكل لا يطاق وأصبح شغبهم وهياجهم وإحداثهم الفتن أمراً مألوفاً بعد ذلك ، حتى بلغت ذروتها في هذه الفترة ٣١٩ هـ/ ٩٣١ م حين سيطر مؤنس قائد الجيش على الأمور وتحكم في الإدارة وفي اختيار الوزراء[2] ، وكان ينتظر من الخليفة أن يستشيره في كل المسائل ؛ كما كان يراقب الخليفة باستمرار ، فبات من الضروري أن يجد الخليفة من يثق به ويعتمد عليه ضد مؤنس . وعند ذلك اعتمد على حاجبه الجديد ياقوت وابنه محمد بن

(١) مسكويه ١٩٤/٥ ، ابن الجوزي ٦٩/٦ ، ابن الأثير ٦٨/٨ - ٦٩ ، ابن العبري ١٥٧ .

(٢) عريب القرطبي ١٥٦ ، حمزة الأصفهاني ١٣٥ - ١٣٦ .

ياقوت[١] . وأصبح النزاع بينه وبين مؤنس أمراً لا مفر منه . وكان أول صدام بينهما عندما عزل الخليفة ابني رائق ، اللذين عيّنهما مؤنس على الشرطة في العاصمة ، وعيّن محمد بن ياقوت على الشرطة وضمّ إليه الحسبة[٢] . غير أن مؤنساً قابل هذه التصرفات من جانب الخليفة بالاستنكار وانسحب بالجيش من العاصمة ، مغاضباً للخليفة[٣] وعسكر في باب الشماسية ، وقدّم إلى الخليفة مطالبه التي تضمنت عزل محمد بن ياقوت عن الحسبة والشرطة وعزل ياقوت عن الحجابة . وقد وافق المقتدر على تنفيذ هذه المطالب فهدأت الحال[٤] على أن الأمور تأزمت من جديد في وزارة سليمان بن الحسن ، عندما بلغ مؤنساً أن الوزير اجتمع « مع جماعة من القواد على التدبير عليه »[٥] . فطالب مؤنس إقصاء الوزير ومصادرته إلاّ أن الخليفة وافق على عزله دون مصادرته . فخرج مؤنس عن طاعة الخليفة وسار بجيشه إلى الموصل في المحرم سنة ٣٢٠ هـ/ ك٢ ٩٣١ م[٦] حيث التحق به أنصاره وبعض فرق جيش الخلافة من الثغور .

---

(١) مسكويه ٥/٢٠٩ ـ ٢١٠ ، عريب القرطبي ١٣٣ .

(٢) مسكويه ٥/٢٠٩ ، عريب القرطبي ١٤٥ ، ابن الأثير ٨/٧٦ ـ ٧٨ ، ابن العماد ٢/٢٨٠

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ٥/٢٠٩ ـ ٢١١ ، الهمداني : تكملة ١/٨٣ .

(٤) مسكويه : المصدر السابق ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

(٥) مسكويه ٥/٢٢

(٦) مسكويه ٥/٢٣٣ ـ ٢٣٥ ، عريب القرطبي ١٦٥ ـ ١٦٧ .

إن فوضى الجيش ، والاعتداءات المتكررة على مقاطعات الدولة المختلفة قد عملت على انقطاع الموارد المالية لبيت المال[1] ، مما تسبب عنه ، وعن كثرة اللاجئين ، ارتفاع الأسعار ، والوباء المريع الذي ضرب بغداد[2] ، وحاول الوزير الفضل بن جعفر مراسلة مؤنس لاسترضائه دون علم المقتدر في حين بادر الخليفة إلى حشد قواته وتهيئتها بعد أن بلغه انحدار مؤنس من الموصل وقد فشلت المحاولات التي بذلها الوزير لمنع التصادم بين الجيشين والذي كان حصيلته مقتل الخليفة في ٢٦ شوال ٣٢٠ هـ/ ٣٠ كانون الأول ٩٣٢ م[3] .

وبعد مصرع المقدر خلفه أخوه أبو منصور محمد الملقب بالقاهر بالله (٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ) . وقد سادت الفوضى بغداد كما اشتهر بقسوته ، فشغب عليه الجند ، فعوّل كبار رجال دولته وقائده مؤنس ووزيره ابن مقلة على خلعه ، فهجموا عليه وسملوه ثم حبس فظل في سجنه إلى أن مات سنة ٣٣٩ هـ في عهد الخليفة الطائع .

---

(١) خرج مرداويج على الخلافة في إيران ، واعتدت قوات البيزنطيين على حدود الدولة واحتلت بعض الثغور دون أن يصدّها أحد لانشغال الخلافة بالمشاكل الداخلية ، كما أن القرامطة من جهة ومؤنساً من جهة أخرى قطعوا التموين عن بغداد .

(٢) عريب القرطبي ١٧٣ ، ١٧٤ ، حمزة الأصفهاني ١٣٦ ، ١٣٧ ، الدوري : دراسات ٢١٧ .

(٣) مروج الذهب ٢٩٢/٤ ـ ٣٠٦ ، التنبية والإشراف ٣٢٧ ، تجارب الأمم ٢٤١/٥ ، المنتظم ٢٤١/٦ ـ ٢٤٣ .

عصر إمرة الأمراء : ازداد ضعف الخلفاء العباسيين منذ مستهل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بسبب ازدياد شوكة القواد من الأتراك وتفاقم خطر الدول المستقلة ، كما اشتدت شوكة علي بن بويه في فارس وأصبحت الري وأصفهان وبلاد الجبل بيد أخيه الحسن بن بويه ، كما استقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر . أما مصر والشام فقد استقل بإدارتهما محمد بن طغج الأخشيد ، واستقل بخراسان نصر بن أحمد الساماني . ولم تكن الحالة في المغرب بأحسن منها في المشرق فقد أعلن عبد الرحمن الثالث الأموي (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) بالأندلس نفسه خليفته وتلقب بلقب أمير المؤمنين الناصر لدين الله فأصبح للعالم الإسلامي في ذلك الوقت ثلاث خلافات : العباسية في بغداد ، والفاطمية في بلاد المغرب ، والأموية في الأندلس .

وقد اختلت أمور الدولة في أوائل عهد الراضي (٣٢٢ - ٣٣٩ هـ) الذي أسند الوزارة إلى رجال لم يقوموا بأي عمل في سبيل إصلاح شؤون البلاد وإقالتها من عثراتها ، لازدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم في أمور الدولة ، مما دعا الخليفة الراضي إلى استمالة ابن رائق الذي كان على واسط والبصرة ، وسلّم إليه مقاليد الحكم ولقّبه بلقب « أمير الأمراء » فازدادت سلطته وعلت مرتبته على مرتبة الوزير . يقول مسكويه : فأنفذ إليه الراضي وعرّفه أنه قلّده الإمارة ورئاسة الجيش . وجعله أمير

الأمراء وردّ إليه تدبير أعمال الخراج والضياع وأعمال المعاون في جميع النواحي ، وفوّض إليه تدبير المملكة . وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في جميع الممالك . وبأن يُكنّى وأنفذ إليه الخلع واللواء . . . وبطل يومئذ أمر الوزارة . فلم يكن الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين ولا الأعمال ، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط . وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمر كله ، وكذلك كل من تقلد الإمارة بعد ابن رائق إلى هذه الغاية »[1] .

انحرف الخليفة الراضي عن ابن رائق ، وصرّح بذلك على ملأ من الناس . ودعا بجكم ليخلّصه مما هو فيه . فدارت الحرب بين بجكم وابن رائق وانتهت بانهزام هذا الأخير وتقليد الأول إمرة الأمراء . على أن الحالة لم تكن في عهد ولاية بجكم أقل سوءاً واضطراباً . وقد عزم ابن رائق على الرجوع إلى بغداد ، وأثار سخط الأهلين على بجكم وازدادت قوته فدخل بغداد في شهر صفر ٣٢٧ هـ وحلّ محل بجكم في إمرة الأمراء .

وصفوة القول أن حالة الدولة العباسية قد أصبحت من الضعف والانحلال حتى لم يتمكن الخليفة أن يدفع أرزاق

---

(١) مسكويه ٣٥١/٥ ـ ٣٥٢ ، ابن الأثير ١١٣/٨ .

الجند ، ولا أن يحصل على ما يكفيه . وهكذا لم تستفد الخلافة أية فائدة من هذا النظام الذي أدخله الراضي بإنشاء منصب أمير الأمراء لإقالة الخلافة من عثرتها ، بل على العكس من ذلك ازدادت أحوالها سوءاً . وأن من يستقصي عهد الراضي والمتّقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ) ، ذلك العهد الذي انتهى بدخول بني بويه بغداد، واستبدادهم بالأمر دون الخليفة وأمير الأمراء فإنه يجد سلسلة من منازعات لا تكاد تنقطع بين رجالات الدولة العباسية والذين عمل كل منهم على الاستئثار بالسلطة وتولي إمرة الأمراء . لقد قام النزاع بين ابن رائق وأبي عبد الله البريدي صاحب الأهواز ثم خرج بجكم على ابن رائق وانتزع من يده إمرة الأمراء ٣٢٧ هـ وظل فيها إلى أن قتل ٣٢٩ هـ . ثم دخل البريدي بغداد ولحق به منافسه ابن رائق ، وانتهى النزاع بينهما بخروج ابن رائق ومعه الخليفة المتّقي إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل ، فقتل هذا ابن رائق حتى لا يقف في وجهه ولا يحول بينه وبين منصب إمرة الأمراء . وسرعان ما دخل ابن حمدان بغداد ومعه الخليفة العباسي وتقلّد أعباء هذه الوظيفة في مستهل شعبان ٣٣٠ هـ . على أن أيام الحمدانيين في بغداد (٣٣٠ ـ ٣٣١ هـ) لم تطل في بغداد . كما لم تكن حالها في عهدهم أحسن منها في عهد من سبقهم . فقد طردهم منها توزون التركي ، رئيس الشرطة في شهر رمضان ٣٣١ هـ وطارد جيوشهم إلى الموصل وتقلد إمرة الأمراء .

بيد أن الصفاء لم يدم بين توزون والخليفة المتقي بسبب تآمره عليه وعمله على صرفه ، فقبض توزون عليه في صفر ٣٣٣ هـ ونهب أصحاب عسكره وأخذ الخاتم من يده « واستخرج عبد الله بن المكتفي بالله ، فألبسه ثياباً جاء بها معه ودفع إليه الخاتم . . . » وبويع خليفة باسم المستكفي بالله . أما المتقي فقد سُمِلت عيناه وظل مسجوناً خمسة وعشرين سنة إلى أن مات في شهر شعبان سنة ٣٥٧ هـ . وفي أوائل عهد المستكفي مات توزون ، فخلفه في إمرة الأمراء جعفر بن شيزارد ، فلم يكن أقل عنتاً ممّن سبقه .

ولم تكد فترة التنافس على إمرة الأمراء (٣٢٤ - ٣٣٤ هـ) تنتهي حتى كان الضيق قد استحكم بأهل بغداد ، فصاروا يأكلون الكلاب والقطط والجيف وانتشر النهب والسلب بينهم ، وأدّى الجوع بهم إلى نهب الحوانيت والحصول على ما فيها من البضائع ، وفرّ كثير منهم من بغداد إلى البصرة وغيرها ، ولكن الكثيرين منهم كانوا يموتون في الطريق من جراء الضعف وشدة الفقر .

وكان من أثر تنازع الأمراء بعضهم مع بعض على إمرة الأمراء أن استعان بعضهم بقوى نافذة على بعض . فقد استعان أبو عبد الله البريدي بعلي بن بويه الذي أصبح صاحب النفوذ في فارس . واستعان ابن رائق بالحمدانيين ضد البريدي عندما عجز عن إخراجه من بغداد التي استولى عليها أثر موت بجكم

٣٢٩ هـ . وقد أدى هذا التنازع على إمرة الأمراء وما أعقبه من الفوضى والاضطراب إلى دخول معز الدولة بن بويه مدينة بغداد على أهون سبيل .

من ذلك نقف على مبلغ ضعف الدولة العباسية في ذلك الوقت الذي انقسم فيه المسلمون إلى شيع وطوائف ، فاشتد خطر القرامطة وتفاقم شر البيزنطيين وطمع فيها الولاة فاستبدوا بالسلطة ، واستقل كثير منهم بالحكم . ولا غرو فقد ازدادت شوكة الموالي من الأتراك الذين اتخذهم الخلفاء العباسيون حرساً لهم ، فما لبثوا أن أصبحوا سادة . واجتمعت السلطة كلها في يد رجل منهم هو أمير الأمراء ، الذي فوّض إليه الخليفة أمر تدبير المملكة ، فلم يعد للخليفة من الأمر شيء سوى السلطة الدينية ، ممثلة بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة ، ولم يكن هذا إلّا لأغراض سياسية ، غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور . ولم يكن من سبيل إلى القضاء على هذه الفئة إلّا بقوة حربية وهكذا دفع اليأس الخلافة العباسية إلى دعوة بني بويه لإنقاذها من الفوضى وسوء الإدارة والأزمة المالية ، فدخلوا بغداد في ١١ جمادى الآخرة ٣٣٣ هـ (١٧ كانون الثاني ٩٤٦ م)[١] . ولقب الخليفة العباسي علي بن بويه بلقب « معز الدولة » . ومن ثم بدأ عهد بني بويه في العراق

---

(١) مسكويه ٦/٨٤ - ٨٥ .

وظل بها حتى ٤٤٧ هـ .

ولم يسلم الخلفاء العباسيون من عسف بني بويه الذين اتبعوا معهم سياسة تقوم على الأثرة والأنانية . لذا يمكن اعتبار عهدهم استمراراً لعصر إمرة الأمراء في اتجاهاته . فقد بقي الخليفة شبحاً للسيادة ، وساد الاتجاه العسكري في مؤسسات الدولة ، وحلّ الأمراء الجُدد محل القدامى . غيرأن بعض الأوضاع الجديدة في العهد البويهي عملت على زيادة التردي في وضع الخلافة ، فقد جاء البويهيون على رأس جيش أجنبي ، وأنشأوا إمارة وراثية ، وانحط مركز الخليفة في عهدهم من سيء إلى أسوأ ، وفقد بعضهم الحرمة والنفوذ التي كانت له في تسيير دفة إدارة الدولة . ولعل السبب الرئيسي في ذلك أن البويهيين كانوا شيعة زيدية[1] . وهم لذلك لا يعترفون بحق العباسيين في الخلافة[2] ولم يوافقوا على إبقاء الخلافة في العائلة العباسية إلّا لاعتبارات سياسية[3] .

٢ ـ النشاط الثقافي :

عاصر المسعودي نهضة علمية ونشاطاً ثقافياً بارزين ، برغم ما شاهدناه من ضعف الدولة العباسية وانحلالها السياسي وتفكك أوصالها واستقلال أطرافها . إذ أنه برغم استقلال معظم

---

(١) الدوري : دراسات ٢٤٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٤٩/٧ .

(٣) الدوري : دراسات ٢٤٨ .

الولايات عن السلطة المركزية في بغداد ، فقد ظلت تعترف بتبعيتها للخلافة العباسية . كما كان المسلمون في ذلك الحين يشعرون أنهم لا يستطيعون الحياة والقيام بأعمالهم اليومية إلاّ في ظل الخلافة العباسية ، باعتبار أن الخليفة عربي قرشي من آل الرسول ﷺ وقد خلفه في الحكم الدنيوي . وكانت هذه الولايات الإسلامية كلها وطناً للمسلمين ، ولم تكن هناك حدود سياسة أو عقبات في سبيل الانتقال من قطر إسلامي إلى آخر ، فالعالم كان ينقسم إلى قسمين متميزين : دار الإسلام ودار الحرب . وعلى هذا استطاع المسعودي وغيره من الرحالة والجغرافيين أن يتنقلوا بين الأقطار الإسلامية في يسر وسلام .

وإذا كانت الدولة العباسية في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري ، حيث عاش المسعودي ، قد تميزت بمظاهر الضعف والاضطرابات السياسية ، إلاّ أنها شهدت من ناحية أخرى نهضة علمية ثقافية كبرى ، فالولايات الإسلامية ، وإن كانت قد استقلت عن الدولة العباسية إدارياً وعسكرياً أو مالياً ، إلا أنها ساهمت بنصيب كبير في النهضة العلمية والثقافية وبناء الحضارة الإسلامية . فقد تنافس أمراء هذه الولايات في تشجيع العلماء والفقهاء والشعراء على الرحيل إلى ولاياتهم والحياة في بلادهم ، وفي أغداق الصلات والعطايا عليهم ، فتبارَوا في الإنتاج العلمي والأدبي . وقد ظهر عدد من العلماء والأدباء والفقهاء في ظل الاستقلال أكبر ممن ظهروا في ظل

الوحدة . وكان كل واحد منهم إذا لم يجد فرصة للشهرة والظهور في بغداد ، رحل إلى إحدى الولايات الإسلامية حيث يبرز اسمه ويلمع . وقد تحدث آدم متز[1] عن أثر انحلال الدولة العباسية فقال :

« لا نريد أن نتعرض للبحث فيما إذا كان انقسام دولة بني العباس دليلاً من دلائل التدهور إذا نظرنا في هذه المسألة بمنظار العصر الذي نعيش فيه ، والذي يحكم في مثل هذه الأحوال على أساس الحكم وعلى أساس ما يسمونه بالوحدة . على أننا لا نستطيع أن نقول أن الأمبراطوريات العالمية ترتكز دائماً على شخص زعيم عبقري ، وإما بنوع خاص على وجود طائفة من أهل القوة . ووجود هذه الأمبراطوريات على كلتي الحالتين وجود غير طبيعي . على أننا لا نجد في مصر في عهد الأخشيد وكافور والأخشيديين ما يدل على تأخرها ، بل هي قد كانت منيعة الجانب عظيمة الخيرات . وكذلك يشهد الرحالون بمناقب السامانيين وعدلهم وشريف أعمالهم وما كان لمملكتهم من عظمة ومنعة . أما بغداد فهي التي تنكرت لها الأيام كلما ضعفت الحكومة ، وكانت أسوأ أيامها السنوات التي أفلت فيها الزمام من يد الحكومة قبيل دخول بني بويه بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

شهد العالم الإسلامي في عصر المسعودي نشاطاً ثقافياً

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع للهجرة ١/١١ .

مميزاً . ففي العراق احتفظت البصرة بمكانتها العملية والأدبية حتى القرن الرابع الهجري . أما بغداد فقد شغل علماؤها في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة بنقل وترجمة العلوم الأجنبية إلى العربية ، لكنهم في القرن الرابع انصرفوا إلى الإنتاج الشعبي ، وعنوا بصفة خاصة بالعلوم الدينية واللغوية . كذلك أخذت عدة من في الدول المستقلة بالشرق تنافس حاضرة الخلافة في تجميل موطنها بالعلماء والأدباء ، ومن أشهرها : أصبهان والري في فارس ، وقد نبغ فيهما كثير من المحدثين والفقهاء والفلاسفة والأدباء . كما أخرجت كل من بخارى وسمرقند طائفة كبيرة من رجال الحديث والفقه أدّوا خدمات علمية كبرى . وقد زار السمعودي كل هذه البلاد . وكانت الحركة العقلية في الشام تسير بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء ، ففي العهد الطولوني والأخشيدي ساد الاهتمام بالعلوم الدينية ، كما تجلى ازدهار الحركة الأدبية في الشام في بلاد الأمراء الحمدانيين بحلب وخاصة أيام سيف الدولة حيث بلغت نهضة الشعر والأدب درجة كبيرة من الرقي . وقد عاش المسعودي الفترة الأخيرة من حياته في الشام ومصر .

انتشرت الثقافة الإسلامية في عصر المسعودي انتشاراً واسعاً ، بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية ، وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية ، ونضجت ملكات المسلمين أنفسهم في البحث والتأليف وتشجيع الخلفاء

والسلاطين في مشارق الأرض ومغاربها .

ومن عوامل النهضة الثقافية والعلمية ، ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية ، وخير مثال لذلك ما نشاهده من الآثار التي خلّفها المعتزلة ودعاة الاسماعيلية من العلماء والمتصوفين وغيرهم . وكان للجدل والنقاش بين هذه الفرق من ناحية وبينها وبين العلماء من السنّيين من ناحية أخرى ، أثر بعيد في هذه النهضة العلمية التي تميز بها هذا العصر ، وخاصة في القرن الرابع الهجري ، على الرغم مما انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك وانحلال وما أصاب الخلافة العباسية من ضعف . ولكن قيام هذه الدول ساعد على ازدياد الثروة وكثرة العمران ، ثم على ازدهار علمي وثقافي[1] ، حيث نبغ كثير من الكتّاب والعلماء والشعراء نذكر منهم ابن أبي الدنيا (٢٨١ هـ) مثقّف الخليفة المكتفي ، والبحتري (٢٨٤ هـ) ، والمبّرد اللغوي المشهور (٢٨٦ هـ) ، وابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، والبلاذري (٢٧٩ هـ) ، وأبو حنيفة الدينوري (٢٧٦ هـ) ، وابن واضح اليعقوبي (٢٩٢ هـ) . كما نبغ في هذا العصر ثابت بن قرة الحراني الرياضي المشهور ، والجغرافي ابن الفقيه الهمداني وكلاهما مات حوالي عام ٢٨٧ هـ . ومن أفذاذ هذا العصر ابن

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ٣/٣٣١ .

المعتز وابن الرومي ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل ، وثعلب إمام العربية ، والبزّاز صاحب المسند ، ومحمد بن نصر المروزي الإمام ، وأبو جعفر الترمذي شيخ الشافعية في العراق . ومن الذين نبغوا أيضاً من معاصري المسعودي الفقيه محمد بن داوود الظاهري وابن شريح شيخ الشافعية ، والجنيد شيخ الصوفية ، والنسائي صاحب السنن ، والجبّائي شيخ المعتزلة ، وابن جرير الطبري المؤرخ والفقيه ، والزجّاج النحوي ، والأخفش الصغير النحوي ، وأبو عوانة صاحب الصحيح ، وقدامة بن جعفر الكاتب ، وابن زكريا الطبيب ، وابن دريد في اللغة والشعر .

وتميّز هذا العهد بامتزاج الثقافات ، فقد تثقف الفرس والهنود بثقافة عربية وأنتجوا فيها ، كما تأثر أهل الشام بالثقافة اليونانية ، وشجع الخلفاء التنجيم لحاجتهم إليه ، مما أدى إلى دراسة الطبيعيات والرياضيات والالهيات . واقتبس العلماء المسلمون من الفلسفة اليونانية ، ونشطت حركة الترجمة من اليونانية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربية .

ومن مميزات عصر المسعودي ، الخلاف الشديد بين الفقهاء وبين أهل السنة وأهل الشيعة ، فقد اعتنقت كل ولاية مذهباً خاصاً بها ، وتعصّبت له ، وعملت على الاعتزاز به ونشره والتقليل من شأن المذاهب الأخرى واضطهاد أصحابها . وكان الخلفاء العباسيون ومن تبعهم في سنيين يتعصّبون للمذهب

السنّي ؛ بينما قامت الدول الفاطمية في المغرب على أساس المذهب الشيعي ، وتعصّب الحمدانيون في ديار ربيعة ، وبكر ، وبنو بويه في العراق للمذهب الشيعي . وقد بدأ الخلاف بين السنيين والشيعيين سياسياً ثم تحول إلى مسألة سياسية ودينية في الآن نفسه .

ومن أبرز مظاهر هذا العصر القول بسد باب الاجتهاد ؛ فقد وقف سير التشريع الإسلامي ومضى عصر الابتكار وبدأ عصر التحجر وأصبح أصحاب المذاهب الأولون كأنهم معصومون . وأصبح الفقيه لا يستطيع الحكم في مسألة إلّا إذا كانت مسألة جزئية تطبيقاً على قاعدة كلية قالها أمام من قبله . وهذا هو الذي يسمى اجتهاد مذهب . أما قبل ذلك فكان الاجتهاد مباحاً ولم يكن مقصوراً على المذاهب الأربعة . ولذا تجمدت المذاهب واقتصر منها على المذاهب الأربعة وأبطل ما سواها . لذلك وقف التشريع تقريباً منذ القرن الرابع . بل إن ذلك تعدى إلى بعض العلوم والفنون فلم يكن أدب غير الأدب القديم ، ولا لغة غير الألفاظ القديمة ومن يرى رأياً غير رأي إمامه خارجاً عن المألوف .

٣ ـ التأليف التاريخي :

عرف علم التاريخ العربي في القرن الرابع الهجري مستويين من التطور ، فعلى صعيد الممارسة نراه يشهد نمواً كبيراً في

اتجاه البحث التاريخي الحقيقي من خلال اختصاصه بالبحث في موضوعات من صميم التاريخ ، وقد أهله هـذا النمو كي يستقل عن العلوم الدينية . لكن هذه الممارسة وما تمخض عنها من إنتاج غزير وتعدد لأغراض التاريخ ووسائل البحث لم تترجم على مستوى النظرية حيث استمر التعلق بالفترة المثال في تاريخ المسلمين حينما كان التاريخ تابعاً للعلم الديني . ويتجلى ذلك كلما تحدث المؤلفون عن التاريخ كعلم ومفهوم حيث يرتدون إلى المفهوم الأصلي ، فهو عندهم علم بالأخبار والأثر وهدفه تصحيح الأخبار ومعرفة الناسخ والمنسـوخ . وهم يعتبرون أن التاريخ الحقيقي قد بدأ بالإسلام . ولم يتسنّ لتنظير التاريخ أن يرتفع إلى مستوى ممارسة التاريخ داخل الثقافة العربية إلاّ مع ابن خلدون .

عبّر عن تزايد اهتمام الحضارة العربية الإسلامية بالتـاريخ هـذه الكثرةالزاخرة من المؤرخين التي عرفها القرن الـرابع للهجـرة والذين توزعتهم المدن الإسلامية الكبرى على تفاوت أنصبتها منهم . وكان طبيعياً أن تستـأثر بغـداد ، بسبب من مكانتهـا السياسيـة والدينية والعلمية بالحصة الكبرى ، فما من عالم كبير إلاّ رحل إليهـا طلباً للعلم ، أو قصـدهـا ليشتهـر ويُعـرف على النـطاق الإسلامي الأوسع . كما لم تستطع أي مدينة أن تبزها أو تدانيها في أي مجال من مجالات العلم والحضارة . وكانت الوظائف الاجتماعية للمشتغلين بالتاريخ متنوعة ، إذ لم يعد العمل في

هذا الميدان حكراً على الفقهاء والمحدثين وعلماء اللغة بل انضاف إليهم الموظفون من عمال الدواوين والكتّاب ورجال البلاط وحتى الوزراء الذين كانوا بحكم موقعهم في النظام السياسي على اطّلاع أكثر وأهم على دخائل الأمور ، كما كانت تحت أيديهم محفوظات الدولة ووثائقها ، ناهيك أن البعض منهم كان في موقع القرار وصناعة الحدث أو من كتّاب تلك الوثائق . كل هذا يغريهم بكتابة التاريخ وخاصة تاريخ الفترات التي عاشوها أو تسنى لهم الاطلاع على دخائلها وخفاياها . وقد ترتب على هذه الظاهرة تغيير واضح في أسلوب التأريخ ومادته فكثرت فيه الوثائق وغابت سلاسل الإسناد ، كما اتّسم بالطابع المدني بعد أن كان الطابع الديني قبلاً هو الغالب . وإذا كان هؤلاء الموظفون الكبار من الوزراء وكتاب الدواوين خاصة قد انصب اهتمامهم على تاريخ الأحداث السياسية يسجلونها مع وثائقها ، فقد استمر الفقهاء والمحدثون مستأثرين بكتابة التراجم ، الأمر الذي ينمُّ عن تباين في وجه النظر حول مفهوم كلٍّ من الفريقين للتاريخ الذي رأه الوزراء والكتاب تاريخاً للأسر الحاكمة وحوادث الحكام في حين رأى رجال الدين تراجم العلماء أصدق تعبيراً عن التاريخ الحق للأمة الإسلامية من حوليات الأسر المالكة التي تشوب أخبارها الأعمال المنافية للدين في كثير من الأحيان . وهكذا بينما نجد السلسلة القديمة من المحدثين ورجال الدين والرواة المؤرخين مستمرة في

اهتمامها بالتراجم خاصة ، نجد أن مجموعة أخرى قد نشأت بجوارها من كبار الموظفين قدمت الكثير من الإنتاج التاريخي الممتاز ، ويأتي في طليعة هؤلاء مسكويه[1] والصولي[2] وثابت بن سنان[3] وهلال الصابي[4] والروذراوزي[5] في

---

(١) أبو علي الخازن أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب بمسكويه توفي ٤٢١ هـ ١٠٣٩ م . من العلماء الموسوعيين الذين حفل بهم القرن الرابع الهجري . من كتبه التاريخية كتاب تجارب الأمم في ستة مجلدات تبدأ مع الخليفة وتنتهي إلى ٣٦٩ هـ/ ٩٧٩ - ٩٨٠ م . لم يطبع منه سوى أجزاء متفرقة ، وكتاب آداب العرس والفرس في ستة مجلدات أيضاً ولا يزال مخطوطاً .
شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون العرب ٢/٩٦٩٥ .

(٢) أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس الصولي الشطرنجي ، مؤرخ ، أديب ، وشاعر . كانت له مكانة عالية في بلاطي المكتفي والمقتدر . ترجع شهرته كمؤرخ إلى كتابه « كتاب الأوراق في أخبار آل عباس وأشعارهم » وقد وصل إلينا بعض أجزائه التي نشرها هايوارت في مجلدات ثلاث بالعناوين التالية : أخبار الشعراء المحدثين ، أخبار الراضي والمتقي ، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم . توفي سنة ٣٣٥ هـ/ ٩٤٦ م
- فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي ١/٥٣٠ .

(٣) أبو الحسن ثابت بن سنان الطبيب المتوفي سنة ٣٦٥ هـ ، كتب كتاباً في التاريخ من سنة ٢٩٥ هـ إلى حين وفاته . كما كتب فيها بعد جزءاً في « وفيات الأعيان » ، نقل عنه ابن العديم في أكثر من موضع من تاريخه « بغية الطلب » .
- شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون العرب ٢/٦٦ .

(٤) أبو الحسن هلال بن المحسّن بن إبراهيم الصابيء المنشيء . ولد سنة ٣٥٩ هـ وتوفي ٤٤٨ هـ . له من الكتب التاريخية : تحفة الأمراء في تاريخ الأمراء نشر بعضه آمدروز (بيروت ١٩٠٤) ، وكتاب رسوم دار الخلافة : الذي نشره ميخائيل عواد في بغداد ١٩٦٤ م ، وكتاب الأماثل والأعيان .
=

العراق ، والبيهقي والثعالبي[1] والعتبي[2] ونظام الملك[3] في إيران . والمسبحي[4] وابن أبي مريم[5] والقضـاعي في[6]

= ـ شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون العرب ٢/١٠٠/ ١٠١ .

(٥) الروذراوزي : أبو شجاع محمد بن الحسين بن عبد الله الوزير . له ذيل كتاب تجارب الأمم لمسكويه ولدينا منه قطعة تمتد على مدن عشرين سنة بين ٣٦٩ ـ ٣٨٩/٩٧٠ ـ ٩٨٩ . نشرها أمدروز (القاهرة ١٩١١) .
ـ شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون العرب ٢/٣٨٦ ـ ٣٨٨ .

(٢) الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل توفي ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م . له يتيمة الدهر . وكتاب الغرر في سير الملوك وأخبارهم . أهداه إلى أبي المظفر نصر شقيق السلطان محمود الغزنوي .

(٣) العتبي : أبو النصر محمد بن عبد الجبار توفي سنة ٤٢٧ هـ . تولى الكتابة في الدولة الغزنوية ، ترجع شهرته الباقية إلى إنتاجه الأدبي ، وبالذات إلى تاريخه « اليميني » نسبة إلى السلطان محمود الغزنوي يمين الدولة وهو مطبوع .

(٤) نظام الملك : أبو علي الحسن بن علي بن إسحق الطوسي ، وزير السلاجقة المشهور : منحه السلطان ملكشاه لقب أتابك تشريفاً له . مؤسس المدارس النظامية في إيران والعراق . له كتاب سياسة نامة .

(٥) هو الأمير المختار عز الملك أبو عبيد الله محمد بن عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز الكاتب المسبحي ولد في مصر سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م ، وكان أجداده قد هاجروا إليها من حران سوريا . وللمسبحي كتاب باسم « أخبار مصر » ذيّل عليه ابن ميسّر حققه وليم ج . ميلوورد وصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .
ـ شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون العرب ٣/٤٤ .

(٦) ابن أبي مريم ، أبو بكر عبيد الله بن محمد بن سعيد وله : تاريخ مصر الذي نقل عنه ابن العديم .

(٧) أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (ت ٤٥٤ هـ/ ١٠٦١ م . ولي القضاء وتقلّب في عدد من الوظائف الهامة في بلاط المستنصر الفاطمي .

مصر . ولم يقتصر ميدان التاريخ على هؤلاء وأولئك من الفقهاء والمحدثين من جهة أو رجال الإدارة والسياسة من جهة أخرى ، ولكن دخله كذلك أصحاب المهن الحرة وأصحاب علوم الأوائل على اهتمامهم العلمي والفلكي والرياضي والفلسفي ولم يعودوا بالبعيدين عن الاهتمام التاريخي ، وبرز من النساخين والوراقين من تبوأ مقعداً في الصف الأول أمثال ابن النديم[1] صاحب الفهرست الذي يعتبر أهم كتاب في تاريخ العلوم الإسلامية حتى أواخر القرن الرابع . ولا نجافي الحقيقة أن قلنا بأن الاهتمام التاريخي أضحى من اهتمامات الناس العامة حيث وجد أناس كثيرون جداً يعملون في الرواية التاريخية وإن لم يدونوها ، أو يروون بعض ما شهدوا لمن يؤرخون . كما وجدت في الناس اهتمامات بقصص التاريخ عبّرت عن نفسها في فيض من القصص شبه التاريخي بعضه للترفيه والتسلية وبعضه للوعظ والإرشاد أو لاشباع رغبة النفوس إلى الغريب والخيال وفي مطلق

وللقضاعي كتب ضاع معظمها منها كتاب المختار في ذكر الخطط والآثار ، كان أحد مصادر المقريزي .

ـ شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون ٢/١٩٠ ـ ١٩١ .

(١) أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب بن إسحق النديم الوراق البغدادي . ولد قبل سنة ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م. ترجع مكانته إلى أنه أول من ألف تاريخاً للتراث العربي قد يكون وحيداً في بابه هو كتاب « الفهرست » طبع في القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ وصور بالافست في بيروت مراراً .

ـ فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربي .

الأحوال كان الفكر التاريخي هو الرابح سعة من جهة وعمقاً في الجذور من جهة أخرى .

وإذا كان تدوين التاريخ قد بدأ في الإسلام في أقاليم محددة كوّنت لها مدارس خاص في المادة والتنظيم . فقد استقطبت المدرسة العراقية منذ القرن الثالث الهجري تلك المدارس ، وأخذت تجتذب إليها كافة العلماء من كل صقع ومن كل اختصاص . غير أن هذا التألق الذي ساق إلى مدرسة بغداد كافة القدرات الفكرية عاد وخمد منذ مطلع القرن الرابع وظهرت من جديد المدارس القديمة . ومع أن جذوة بغداد لم تخمد ، إلاّ أن أقاليم جديدة من العالم الإسلامي دخلت بدورها ميدان التأليف التأريخي ، كما ظهرت لها تقاليدها في الرواية التاريخية الاقليمية وفي التأليف الاقليمي . ويبرر المسعودي هذه الاقليمية بتزايد التاريخ على مر الزمن فيقول :

« . . ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام ، حادثة مع حدوث الأزمان . وربما غاب البارع منها عن الفطن الذكي . ولكل واحد قسط يخصه بمقدار عنايته ، ولكل قطر عجائب يقتصر علمها على أهلها »[1] .

ومن النص السابق نستنتج أنه وُجد في البلاد المختلفة من

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ١٢/١ ط بلاّ .

شعر بأن لديه من الأخبار والأحوال ما يستحق التسجيل وما يقوله بالإضافة إلى ما يسجله أصحاب التواريخ العامة . وفي ذلك الكثير من النزعة الوطنية والتقدير للأخبار المحلية المشهورة مقابل الأحداث غير المشهورة . وإذا كان لكل قطر ، كما يقول المسعودي ، أخباره التي يقتصرأهله على العلم بها فإن الواجب على صاحب المعرفة من أهل البلاد أن يعلم جل أبنائها ويحفظ أيام أمرائها ، إذ لا شيء أزرى عليه من أن يجهل أخبار أرضه ، وهو إن تركها وطلب غيرها كان كمن ترك الواجب وتبع النوافل . يضاف إلى ذلك أن التفكك السياسي الذي عرفته البلاد الإسلامية اعتباراً من القرن الرابع كان له أثره في ظهور الأنواع الاقليمية من التواريخ في محاولة لإثبات الشخصية المحلية وتبرير الانفصال السياسي بإعطائه الأساس التاريخي ، بجانب ما في ذلك أحياناً من الفخر أو محاولة إثبات الشرعية أو المبادىء المذهبية والسياسية . ومن جهة ثانية فإن التفاخر بحمل الروايات والحديث والتنافس القوي بين الأمصار في الرواة والرجال والسند المتين وكثرة الحفّاظ كان لها دورها دون شك في ظهور الكثير من مؤلفات التاريخ الاقليمي والبلداني . ومن هذا وذلك توزعت الأقطار الإسلامية تدوين التاريخ مرة ثانية ولكن على أساس جديد لعبت به القوى السياسية الدور الأول بمعنى أن المدارس الجديدة إنما كانت تتقدم وتتوطد حيث تظهر الدول المنقطعة في مصر وإيران أو في الأندلس والمغرب

وتونس . ومع ذلك فإن هذه المدارس الاقليمية لم تنسها التفاصيل الاقليمية أحداث الأقطار الاسلامية الأخرى والاهتمام بها وخاصة منها بغداد عاصمة الخلافة ، فأدخلوا بذلك تواريخ الأقاليم الإسلامية المختلفة ضمن التاريخ الاقليمي المحدود . وكان وراء ذلك عوامل عديدة تتمثل في نمو واستقرار الشعور بوحدة الأمة الذي يجد تعبيره العملي في اهتمام المؤرخين المسلمين بكل بلد إسلامي كما أن الارتباط السياسي بالخلافة العباسية في بغداد ، وإن كان شكلياً ، كان لا يزال موجوداً ، لذا لم يكن بوسع مؤرخي الأقاليم إغفال أخبار العاصمة على الأقل والتي ترتبط بها أقاليمهم وتؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على تطورات الحكم المحلي ورجاله . يبقى هناك عامل مهم يتمثل في الرحلة بين أقطار العالم الإسلامي . فقد كانت دار الإسلام مملكة واحدة في نظر العلماء والجغرافيين والتجار والرّحالة . وكانت حركتهم فيها خلال تلك العصور حركة دائبة ونشطة لدرجة نستطيع معها أن نعتبر الرحلة لمختلف الأغراض إحدى مميزات القرون الوسطى الإسلامية . وإذا كانت الحركة التجارية سبباً رئيسياً في الرحلة بين الأقطار ، فإن آثارها كانت محدودة في التدوين التاريخي قياساً على الأهمية التي اكتسبتها رحلة العلماء في طلب العلم . وقد بدأ هذا النوع من الرحلة في جيل الصحابة لطلب الحديث ممن سمعه بنفسه . وحذا جيل التابعين حذو الصحابة فتفرقوا في الأمصار بعد الفتوحات لتلقي

العلم على الصحابة المتفرقين فيها . ونشّط هذه الحركة الوضع في الحديث والأخبار . ثم اتسع نطاق الرحلة بعد ذلك حتى أصبحت الرحلة في القرن الرابع إلى بغداد وعلمائها وإلى مراكز العلماء الأخرى في القاهرة أو دمشق أو نيسابور ، تقليداً علمياً ، لا يُعتبر العالم عالماً حقاً إن لم يقم به « فليس من لزم جمرات وطنه وقنع بما نُمي إليه من الأخار عن إقليمه كمن قطع الأقطار ووزّع أيّامه بين تقاذف الأسفار واستخرج كل دقيق من معدنه »[1] وقد انعكس أثر هذه الرحلات من ناحية التدوين التاريخي ، في تواريخ الأقاليم المختلفة ، والتراجم منها خاصة بحيث باتت تحوي بجانب التراجم المحلية مجموعة من تراجم العلماء والعابرين والزوار من كل صقع .

جانب آخر من ملامح علم التاريخ وأبعاده الفكرة المميزة في هذا القرن ، تمثل بتطور المادة التاريخية نفسها . وأبرز ما طرأ عليها إلى جانب الكثرة في عدد المؤلفات ، الوفرة في كمية المادة المدوّنة وفي تنوعها . وإذا كانت كثرة المؤلفات ناجمة عن دخول الكثيرين ميدان التاريخ كما رأينا ، فإن وفرة المادة المدوّنة جعلت تلك المؤلفات تتضخم تدريجياً إلى أحجام كبيرة . ولم يقتصر هذا التضخم على كتب التواريخ العالمية الجامعة ، بل تعداها أحياناً إلى كتب تواريخ المدن والأسر

---

(١) المسعودي : نفس المصدر والصفحة .

والتراجم أو حتى بعض الفترات المحدودة من التاريخ التي قد لا تزيد على عشرات من السنين . وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد كتب المسعودي كتاب أخبار الزمان في ثلاثين مجلداً ، ثم اختصره في أربع مجلدات هي مروج الذهب . ولعل ضخامته قد كانت السبب الأساسي في ضياعه فلم يبق منه سوى المجلد الأول . وقد حظيت تواريخ المدن بدورها بالضخامة الواسعة بما حملته من مفهوم التراجم الذي حوّلها من تاريخ سياسي عمراني إلى تاريخ للرجال ممّن عرفوا تلك المدن عن طريق نزولهم فيها أو رحلتهم إليها ، أو ممن ولدوا فيها . وهكذا كتب الخطيب البغدادي[1] على أساس التراجم تاريخ بغداد في خمسة عشر مجلداً ، وقد شكل مطلع سلسلة من الكتب حول هذه المدينة ، كتب حلقاتها عدد من المذيّلين فيما بعد[2] .

وكما تضخمت المؤلفات ، تنوّعت المعلومات التاريخية وتعددّت المواضيع المطروقة تعدداً واسعاً . شعر الناس أن كل شيء يستحق أن يسجل ويكتب من جهة ، وأن الحياة السياسة أصبحت تراثاً طويلاً من جهة أخرى . كما شعروا بارتباط

(١) الخطيب البغدادي ، أبو بكر أحمد بن ثابت بن أحمد (٣٩٢ ـ ٤٦٣ هـ) ، حافظ ومؤرخ في الوقت نفسه ، له عدة كتب أشهرها تاريخ بغداد وهو مطبوع في القاهرة (١٩٣١) وبيروت (١٩٦٥) .
ـ شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون ٢/١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٢) عن هذه الذيول انظر :
ـ شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون ٢/١٤ ـ ١٦ .

التاريخ مع العلوم والمعارف الأخرى فأطلوا بها عليه .

وهكذا بينما دخل وعلى نطاق واسع ، ما نستطيع أن نسميه التاريخ الحضاري على مباحث التاريخ الإسلامي ، تأثر التاريخ بالمقابل سواء بحاجات التنظيم السياسي أو بمختلف أنواع العلوم المجاورة له . ومن كل ذلك كانت له ثروة هائلة من المعلومات لم يعرفها تاريخ أمة من قبل . فأمّا في نواحي الحضارة والحياة ، فإن بلوغ المجتمع الإسلامي ، في القرن الرابع الهجري ، أوج تطوره وفاعليته الحضارية ، أوجد حاجات فكرية مستجدة عليه . وقد انعكست هذه الحاجات في إنتاجه الفكري وفي الكتب التي ألّفها الناس وتداولوها ، وكلها تدور إلى حدّ كبير في نطاق التاريخ ، فكثرت المؤلفات الخاصة بالأسمار والمنادمة والنوادر والغناء والطرب والخمر والشراب وغيرها . ويدخل في باب هذه الكتب التاريخية الحضارية ، دون شك ، كتب الديارات التي كانت تجمع أخبار الغناء واللهو والخمر والندامى والأعياد ، وكانت مادة من مواد التأليف التاريخي الأثيرة إلى الكثيرين . ولعل كتاب الديارات للشابشتي[1] من أشهر هذه الكتب ، كما يدخل في هذا الباب

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي (ت ٣٨٨ هـ/ ٩٨٨ م) . له كتاب « الديارات » وقد طبع أكثر من مرة منذ ١٩٥١ بتحقيق كوركيس عواد . وعدا قيمته البلدنية والأدبية نجد فيه الكثير من الأنباء والأحداث التاريخية .

ـ شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون ٢/٣٠٩ .

ما كتبه المؤلفون حول أخبار الهدايا والتحف ، وهو موضوع راج الرواج الكبير في هذا القرن مع استبحار الحضارة ، وما كتب من أخبار الفروسية والحرب والسلاح والخيل والبيزرة وطرق القتال .

وفُتح على علم التاريخ باب واسع من المعلومات ، من خلال الكتب التي أوحت بها الحاجات السياسية والإدارية لتأصيل وتوطيد المؤسسات التي تقوم عليها الدولة ، ولتعليم الأجيال اللاحقة تجارب الأجيال السابقة . وهكذا تعددت الكتب التي تتحدث عن الوزراء والحجاب ، والكتّاب والقضاة والولاة والشُرَط . وكتب الخراج والحسبة . وكتب التعليم السياسي وأخبار كل أولئك ، وهي بالعشرات ومعظم مواضيعها أضحى عنوانا لسلاسل طويلة من المؤلفات ، واختصت أحياناً بقطر واحد دون سواه .

ولم يكن بوسع علم التاريخ أن يعيش في عزلة عن تلك الحركة العلمية الواسعة التي بلغت أوجها في هذا العصر ، وكان لا بدّ لنمو الفلسفة والمنطق وتطور الفكر الجغرافي بالاطّلاع والرحلات ، أن تؤثر بشكل أو بآخر على الفكر التاريخي نفسه وعلى طرائق التدوين . وقد استخدمت معطيات الفلسفة والمنطق وعلم السياسة خاصة ، وعلم الكلام في بعض الكتب التاريخية ، وعلى مستويات مختلفة ، تدل كثرتها على الصلة

الوشيجة التي تربط الفكرين الفلسفي والتاريخي . وقد شهد القرن الرابع خاصة محاولات للمزاوجة بين الفلسفة والتاريخ في نظام فكري منسجم متكامل كما حصل مع المطهر بن طاهر المقدسي[1] في كتابه « البدء والتاريخ » الذي شكل محاولة لفلسفة التاريخ وإخضاع أحداثه ، من الناحية الظاهرية على الأقل ، للإطار الفلسفي . كما نجد تأثير الفلسفة في التاريخ عند المسعودي ، ومع أنه لم يحاول كالمقدسي خلق نظرة كلية ، ولكنّه بثّ قراءاته الفلسفية ومعلوماته الواسعة في الالهيات والطبيعيات ، والمنطق وما وراء الطبيعة ، وعلم الكلام وعلم الأديان في ثنايا كتبه التي تكشف في معظمها عن طبيعتها الفلسفية التاريخية .

لكن المعطيات الفكرية الفلسفية دخلت المؤلفات التاريخية كمادة تاريخية وليس كمنهج فكري للتطبيق التاريخي فيها . أما الجانب الأهم الذي ظهر فيه أثر الفكر الفلسفي في التاريخ ، منذ القرن الرابع خاصة ، فكان في ناحيتي الحكمة والموعظة حيث وجد المؤرخون الأخلاقيون في التراث الإسلامي من الآيات والأمثال العربية المرسلة والشعر ، وفي تراث الفرس

---

(١) هو أبو نصر المطهر بن طاهر المقدسي . ولد حوالي سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م في بست بسجستان . له : كتاب البدء والتاريخ . وهو عرض موجز يتضمن مادة في تاريخ الحضارة وقدراً من المعلومات القيّمة قد لا نجدها إلّا فيه . وقد نشر ايوار Cl. Huart اعتماداً على مخطوطة داماد إبراهيم التي لا تضم إلّا ثلثي الكتاب . وأعيد طبعه مصوراً في بغداد سنة ١٩٦٢ .

التاريخي ، وفيما يروى من حِكَم الاغريق والاسكندر وأرسطو معيناً لا ينضب من الحكم والمواعظ والشعارات التوجيهية الجاهزة للدخول في ثنايا المواقف التاريخية ، وإعطائها صفة القانون الحياتي أو التحذير القدري . وقد كونت هذه الحكميات بصورة عامة جزءاً من السير والتراجم وفي كتب التاريخ المؤلفة على النمط التقليدي .

ولعل الأهم والأبقى من الفكر الفلسفي ـ التاريخي ، علم السياسة وآداب السلطة . وكانت المؤلفات في معظمها تأخذ شكل الحكمة والموعظة ، حيث يزدوج تأثير الدين وواجباته بتأثير الفلسفة ، ومعطيات السياسة مع مبادىء الأخلاق . وقد ظهرت في هذا المجال مجموعات من كتب السياسة وكتب الإمامة .

وتأثر التاريخ إلى هذا وذاك كله بنمو الجغرافية وتكاثر رحلات الناس . وإذا كانت الحضارة الإسلامية العباسية حضارة التاجر[١] ، فإن الفترة ما بين القرن الثالث حتى أواخر القرن الرابع الهجري ، كانت الفترة التي بلغ فيها ذلك التاجر أوج نشاطه وتنقّله وإطلاعه على مختلف البلدان والطباع والأجناس والمناطق والامتزاج بها ، حيث ظهر نوع من الجوع العلمي لأنواع المعرفة ، وهذه ميزة من ميزات العصور المتجهة نحو

(١) شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون العرب ١/٣٤٤ .

الاشباع الثقافي ، ونحو فترات الأوج الحضاري . وإذا كان القرن الرابع الهجري هو قرن الجغرافية ، لأن كافة الكتب الأساسية فيها إنما ظهرت في هذا القرن ، فإنه كذلك قرن التاريخ ، وقرن تأثر التاريخ بهذا الفيض من المعلومات الجغرافية . ممّا نجم عنه ظهور جيل من المؤرخين الجغرافيين .

وقد كانت المعلومات الجغرافية في كتب التاريخ قليلة قبل القرن الرابع الهجري ، وذات صبغة عملية ، إدارية وشرعية تتصل بعلاقات الشعوب في الدولة الإسلامية مع نظام الحكم كما يتجلى ذلك في كتب الفتوح وكتب الخطط . أما في هذا القرن فقد كان دخول المعارف الجغرافية إلى التاريخ نابعاً عن الرغبة في المعرفة ، وسعة الاتصال وتنويع المصادر . وقد شجع على ذلك أن بعض كتب الجغرافية كانت مثقلة بأخبار التاريخ ، مثل كتاب ابن حوقل[١] « صورة الأرض » ، وكتب المسالك والممالك . ولعل أبرز من تمثل فيه التأثر بالجغرافية من المؤرخين هو المسعودي في كتبه الباقية ، فقد كان لا ينقطع

---

(١) ابن حوقل . أبو القاسم النصيبيني التاجر والرحالة والداعية السياسي . له كتاب المسالك والممالك المعروف أيضاً بكتاب صورة الأرض الذي يفصل بلاد الإسلام صقعاً صقعاً ، وكورة كورة ، كما يحفل بمئات الإشارات والأخبار والمعلومات التاريخية التي لا نكاد نجدها لدى المؤرخين .
ـ شاكر مصطفى : التاريخ والمؤرخون ٢/٧٠ .

كلما واتته الفرصة عن إيراد المعلومات الجغرافية العـامة التي جمعها أو قرأها ، وهي خليط من الجغرافية الفلكية والبشـرية والتاريخية والطبيعية . وإن لم يجعل للتاريخ كتاباً وللبلدان كتاباً آخر كما فعل اليعقوبي مثلاً . غير أن المؤرخين بعد هذا القرن لم يذهبوا قُدُماً في هـذا التأثـر ، بل اكتفـوا بإيجـاد تقليد في التأليف التاريخي يقضي ببدء المؤلفات بلمحة جغرافية عامة عن المناطق والأقاليم في الأرض إذا كان من التواريخ العامة ، أو التمهيد للبحث التاريخي بنظرة جغرافية طوبغرافية للأقاليم إذا كان التاريخ تاريخ إقليم بعينه .

الفصل الثاني

سيرة المسعودي ومؤلفاته

أولاً ـ سيرة المسعودي :

١ ـ لقب المسعودي : هو علي بن الحسن بن علي بن عبد الله الهذلي المسعودي . من ذرية الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ، لذا عرف بالمسعودي ، ويكنى بأبي الحسن .

وكان لعبد الله بن مسعود ، الجد الأكبر للمسعودي ، مكانة كبرى في قلوب أهل العراق ، فقد خرج إلى هذه البلاد في عهد الخليفة عثمان بن عفّان ، والتف حوله الأهالي ليحدثهم عن الرسول ﷺ ، ولينقل إليهم سنّته المشرّفة ، وكان قد خرج في هذا العهد كثير من صحابة الرسول إلى الأمصار المفتوحة . ووقف أهل العراق إلى جانب ابن مسعود في الخلاف الذي ثار بينه وبين الخليفة عثمان حول المصاحف . ففي السنة الثلاثين للهجرة « بلغ عثمان ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق ، فإنهم يقولون قرآننا أصح من قرآن أهل الشام . لأننا قرأنا على المقداد بن الأسود ، وكذلك غيرهم من الأمصار . فأجمع رأيه

ورأي الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتبه في خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، وكان مودعاً لدى حفصة زوج النبي ﷺ ، وتحرق ما سواه من المصاحف التي بأيدي الناس ، ففعل ذلك »[1] ورفض ابن مسعود أن يسلّم مصحف الكوفة إلى عبد الله بن عامر ، والي عثمان ، فأمر عثمان واليه باستدعاء ابن مسعود ، فدخل ابن مسعود مسجد المدينة وعثمان يخطب . فقال عثمان : « إنه قد قدمت عليكم وأبة سوء »[2] . فتكلم ابن مسعود بكلام غليظ ، فأمر به عثمان فجر من رجله حتى كسر له ضلعان . وغضب أهل العراق لما أصاب ابن مسعود ، فقد كانوا يحترمونه ويجلّونه لأنه من أقدم أصحاب الرسول ﷺ وأحد الثقات الكبار في القرآن الكريم ، وكان ذلك من عوامل ثورة أهل العراق على حكم عثمان .

وقد ارتبطت أسرة ابن مسعود منذ ذلك الحين ببلاد العراق ، وانصرفت إلى ميادين العلم والأدب ولم تشترك في الصراع السياسي الذي شهدته بلاد العراق في العصرين الأموي والعباسي . حتى إذا قامت بغداد في عهد الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور سكنت هذه الأسرة العاصمة العباسية .

٢ ـ ولادة المسعودي ونشأته ببغداد : ولد المسعودي حوالي

---

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ١ /١٦٧ ـ ١٦٨

(٢) المسعودي : مروج الذهب ٢ /٢٣٢ .

سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م في مدينة بغداد ، ببلاد العراق ، في العصر العباسي الثاني في آواخر عهد الخليفة العباسي المعتضد . وكان عصر هذا الخليفة فترة هدوء ورخاء توسطت فترات قلق واضطراب شهدتها عهود أسلافه وخلفائه من الخلفاء العباسيين . وتحدث المسعودي في كتابه مروج الذهب عن عهد هذا الخليفة فقال : « ولما افضت الخلافة إلى المعتضد بالله سكنت الفتن ، وصلحت البلدان ، وارتفعت الحروب ، وانفتح له الشرق والغرب وأديل له في أكثر المخالفين عليه والمنابذين له »[1] . ونال الخليفة المعتضد اهتمام المسعودي كمؤرخ ، فنجده يسهب في دراسة تاريخه وعصره .

نشأ المسعودي في مدينة بغداد. وإذ كان ينتسب إلى أسرة عربية عريقة ، فقد اهتمت هذه الأسرة بتعليمه وتثقيفه وتنشئته نشأة عربية إسلامية . وكانت بغداد حينئذ مركزاً من أهم مراكز العلم الكبرى في العالم ، واشتهرت بمكتباتها وما حوته من تراث العرب المسلمين ، كما ضمّت عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء والأدباء ، ولذا تيحت الفرصة للمسعودي ليتلقى قسطاً وافراً من العلم والثقافة .

وحينما كان المسعودي في أول الحلقة الثانية من عمره ، تعرضت الدولة العباسية لخطر داهم وهو خطر القرامطة الذين

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢٣٢/٤ .

هددوا بغداد والبصرة وألقوا الرعب في قلوب الناس . كما هدد القرامطة بقيادة زكرويه بلاد الشام وهاجموا قوافل الحجّاج بعد عودتهم من مكة وقتلوا نحواً من خمسين ألفاً منهم مما اضطر الخليفة المستكفي الخروج إلى بلاد الشام لقتالهم[١] .

٣ ـ رحلات المسعودي : ألمّ المسعودي بألوان مختلفة من العلوم والثقافات ، فقد درس العلوم اللغوية والأدبية والفقهية ، كما ألمّ بالتاريخ والجغرافية والفلسفة وتعلّم كثيراً من اللغات ، كالفارسية والهندية واليونانية والرومية والسريانية . وقد أراد المسعودي أن ينمي ثقافته ويزيد معلوماته بعد أن نهل العلوم من منابعها المختلفة في بغداد ، فرأى أن يرحل إلى الأقطار المختلفة ، عربية وغير عربية ، ليستمد المزيد من المعلومات من مشاهداته ، ويلتقي بالثقافات المختلفة وجهاً لوجه بعد أن التقى بها في متون الكتب ، وليلمس بنفسه صوراً من حياة الشعوب ويرى ألواناً من الحضارات .

ولم يكن من شأن انقسام الدولة العباسية ، وقيام الدويلات المستقلة ، أن يؤدي إلى ضيق في معنى الإسلام أو في الوطن الإسلامي ، بل كانت هذه الأقاليم في الحقيقة تؤلف مملكة واحدة سميت مملكة الإسلام تمييزاً لها عن سائر الممالك غير الإسلامية . وقامت وحدة إسلامية لا تتقيّد بالحدود السياسية

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ٤/٢٨٠ .

الجديدة ، فكان المسلم يستطيع أن يرتحل في داخل حدود هذه المملكة في ظل دينه وتحت رايته ، وفيها يجد الناس يعبدون الاله الواحد الذي يعبده ويصلون كما يصلي ، وكذلك يجد شريعة واحدة وعرفاً واحداً وعادات واحدة . وكان يوجد في هذه المملكة الإسلامية قانون عملي يضمن للمسلم حق المواطن ، بحيث يكون آمناً على حريته الشخصية أن يمسها أحد ، وبحيث لا يستطيع أحد أن يسترّقه على أي صورة من الصور[1] .

وكانت بغداد حين رحيل المسعودي عنها تمر بفترة سياسية قلقة ، فقد تميزت فترة العصر العباسي الثاني بسيطرة العناصر الدخيلة على الخلفاء العباسيين ، واستئثارهم بالسلطة دون هؤلاء الخلفاء . فرأى المسعودي أن يرحل بعيداً عن هذه الاضطرابات السياسية ، حتى يكون أكثر حرية في تدوين أخبار تاريخ هؤلاء الخلفاء العباسيين . وقد استفاد المسعودي من هذه الرحلات ، حيث تسنى له جمع كثير من الحقائق التاريخية والجغرافية ، فطاف في بلاد فارس وكرمان ، واستقر لفترة في إصطخر كما رحل إلى الهند وملتان والمنصورة ، ثم عطف على كنباية ، فصيمور . واستقر فترة في بومباي ، ثم عاش فترة أخرى في سرنديب (سيلان الحالية) ومن هناك ركب البحر مصاحباً بعض التجار إلى بلاد الصين . وجاب المحيط الهندي

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع للهجرة ١/ ٤ .

وزار جزائره وموانيه وخاصة مدغشقر وزنجبار . ثم عاد إلى عمان .

وكانت للمسعودي رحلة أيضاً إلى ما وراء أذربيجان وجرجان . ثم رحل بعدها إلى بلاد الشام وفلسطين ، وإلى انطاكية وزار ثغور الشام . ثم عاد إلى البصرة . وما لبث أن عاود الرحيل إلى بلاد الشام واستقر فترة في دمشق .

تنقل المسعودي بين العراق والشام ومصر . وهو يحدثنا أنه أتم تأليف كتابه مروج الذهب في الفسطاط بمصر سنة ٣٣٦ هـ وكان قد بدأ تأليفه سنة ٣٣٢ هـ . ويذكر كذلك أنه في سنة ٣٤٢ هـ كان يشتغل بوضع النسخة الأولى من كتابه التنبيه والإشراف بالفسطاط أيضاً ، ثم في سنة ٣٤٥ هـ زاد فيها وأصلحها .

٤ ـ استقرار المسعودي في الفسطاط ووفاته : جاب المسعودي أرجاء العالم القديم وتعرض للكثير من الأخطار والمغامرات وشعر بحاجة إلى الاستقرار ، فكانت نهاية المطاف في مصر حيث استقر في مدينة الفسطاط . وقد يتساءل البعض عن سبب اختيار المسعودي الإقامة في مصر دون غيرها من الأقطار العربية والإسلامية وعدم عودته إلى بغداد ، رغم أنه كان يشعر وهو في مصر بالحنين إلى بلاد العراق عامة وبغداد خاصة ، حتى أنه عبر عن هذا الحنين في كثير من مواضع كتبه

وأشاد بالوطنية وكل من يشعر بالوفاء نحو وطنه ، وأطنب في امتداح بلاد العراق وأبرز محاسنها . ويمكننا أن نعلل ذلك بعاملين ، أولهما اضطراب الأحوال السياسية الداخلية في بغداد ، نتيجة تنازع وتصارع كثير من القوى الغير عربية على السلطة والنفوذ وثانيهما ما اشتهرت به مصر في هذه الفترة من هدوء واستقرار ونهضة علمية وثقافية في ظل حكامها الأخشيديين الذين حققوا لمصر نوعاً من الشخصية المستقلة .

ويبدو أن زيارة المسعودي لمصر سنة ٣٣٦ هـ جعلته يعزم على الإقامة فيها لما لمسه من استقرار أحوالها ، فظل فيها مقيماً في مدينة الفسطاط حتى توفي سنة ٣٤٦ هـ . وقد نشر في مصر كتابه مروج الذهب ، فكان لذلك أثره في تقدم الدراسات التاريخية في مصر .

٥ ـ **صفاته النفسية والعقلية** : من العسير أن نرسم صورة واضحة مفصلة للمسعودي ، فكل من كتب عنه ، لم يكتب إلاّ عن إنتاجه العلمي ، فلم يمدونا بمعلومات عن صفاته الجسمانية ، ولم يصوروا لنا حياته الخاصة واليومية ولم يرسموا لنا صورة نفسية أو خلقية . ولذا كان علينا أن نستنبط هذه الصور من بين سطور كتابيه المروج والتنبيه .

ونجد في كتاب مروج الذهب صوراً لبعض جوانبه النفسية ، فالمسعودي صورة صادقة للوطني المخلص . وبرغم أنه قضى

أكثر من خمس وعشرين سنة في تجوال دائم ، حتى أصبح شخصية عالمية ، إلّا أنه لم ينس موطنه الأصلي ، بلاد العراق ، حيث ولد ونشأ . ولذا نجد المسعودي في كثير من مواضع كتابه المروج يعبر عن حنينه إلى هذه البلاد وشوقه لرؤيتها . كما تحدث عن الوطنية والوفاء للوطن فقال :

« وقد ذكر الحكماء فيما خرجنا إليه من هذا المعنى ، أن من علامة وفاء المرء ودوام عهده ، حنينه إلى اخوانه وشوقه إلى أوطانه ، وبكاءه على ما مضى من زمانه ، وأن من علامة الرشد أن تكون النفوس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسه تواقة ، وللإلف والعادة قطع الرجل نفسه لصلة وطنه » .

وفي كتاب مروج الذهب أيضاً تتضح ثقة المسعودي بنفسه ، واعتزازه بما وصل إليه من علم وثقافة ودراية ، وبما قام به من جهود ومغامرات ، وما لاقاه من أهوال ومصاعب ، فقد أراد المسعودي أن يثبت للقارىء أن كتابه يتميز عن كتب غيره ممن سبقوه فقال :

« فإنّا مجدنا مصنفي الكتب في ظل ذلك مجيداً ومقصراً ، ومسهباً ومختصراً ، ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام ، حادثة مع حدوث الأزمان ، وربما غاب البارع منها على الفطن الذكي ، ولكل واحد قسط يخصه بمقدار عنايته ، ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله » .

ويفخر المسعودي على أقرانه المؤلفين ، إذ هو قد رجل كثيراً واستفاد من رحلاته فيقول :

« وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي إليه من الأخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، موزع بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس من حكمته » .

ويعتز المسعودي بجهوده وما لاقاه من مشقات في رحلاته الكثيرة . وهو يفخر بذلك فيقول في المروج

« وجميع ما أوردناه في هذا الكتاب لا يسع ذوي الدراية جهله ، ولا يعذر في تركه والتغافل عنه ، فمن عد أبواب كتابي هذا ولم يمعن النظر في قراءة كل باب منه لم يبلغ حقيقة ما قلناه ولا عرف للعلم مقداره . فلقد جمعنا ما فيه في عدة سنين باجتهاد وتعب عظيم وجولات في الأسفار ، وطواف في البلدان من الشرق والغرب ، في كثير من الممالك غير مملكة الإسلام . فمن قرأ كتابنا هذا فليتدبره بعين المحبة ، وليتفضل لهمته بإصلاح ما أنكر منه ممّا غيّره الناسخ ، وصحّفه الكاتب . وليرع لي نسبة العلم ، وحرمة الأدب ، وموجبات الرواية ، وما تجشمت من التعب فيها ، فإن منزلتي فيه وفي نظمه وتأليفه بمنزلة من وجد جوهراً منثوراً ذا أنواع مختلفة وفنون متباينة ، فنظم منها سلكاً واتخذ عقداً نفيساً ثميناً باقياً لطلابه » .

ويدرك المسعودي قيمة كتبه ويقدرها حق قدرها ، ولذا فهو ينهى عن التصرف فيها في أي صورة ، ويخوّف من ذلك ، بغضب الله عليه وسرعة نقمته وأن الله سينزل به البلاء ويجعله مثلة للعالمين وعبرة للمعتبرين . ثم يقول :

« وقد جعلت هذا التخويف في أول كتابي هذا وآخره ليكون رادعاً لمن ميله هوى ، أو غلبه شقاء ، فليراقب الله ربه ، وليحاذر منقلبه . فالمدة يسيرة والمسافة قصيرة وإلى الله المصير » .

وكان المسعودي على جانب كبير من العلم والثقافة ، والخبرة والتجربة ، تلقن بعضها في شبابه في بغداد ، واكتسب معظمها خلال رحلاته وأسفاره ، وقد اعترف له بذلك كل المؤرخين والكتاب ، قدماء ومحدثين ، وأصبحت كتب المسعودي مرآة صافية تنعكس فيها هذه الثقافات والخبرات ، ولذا قال المسعودي في مقدمة كتابه :

« ولم نترك نوعاً من العلوم ولا فناً من الأخبار ، ولا طريقة في الآثار ، إلاّ وأوردناه في هذا الكتاب مفصلاً ، أو ذكرناه مجملاً ، أو أشرنا إليه بضرب من الاشارات ، أو عرضنا إليه بفحوى من العبارات .

ولكن المسعودي وإن اعتز بعلمه وثقافته ، فهو يبدو في كثير من صفحات كتبه بمظهر المتواضع ، وهو تواضع العلماء . لذا

يعتذر عما قد يلاقيه القارىء من تقصير إن كان « ونتنصل من إغفال إن عرض ، لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار ، وقطع القفار ، تارة على متن البحر ، وتارة على ظهر البر » .

والمسعودي في آخر فقرات كتاب مروج الذهب يعتذر عمّا يكون في الكتاب من سهو أو تصحيف أو نقص ، أو تغيير قد يقع فيه الناسخ لكتابه فيقول :

« وقد قدمنا الاعتذار فيما سلف من هذا الكتاب من سهو إن عرض أو تصحيف أو تغيير من الكاتب إن وقع ، ولما قد دفعنا إليه من الأسفار المتواترة ، والحركة المتصلة ، تارة مشرقين ، وتارة مغربين ، وطوراً ميمنين وطوراً متشائمين ، وما يلحقنا من سهو الإنسانية ويصحبنا من عجز البشرية عن بلوغ الغاية وتقصي النهاية . ولو كان لا يؤلف كتاباً إلاّ من حوى جميع العلوم ، إذن ما ألّف أحد كتاباً ولا تأتى له تصنيف ، لأن الله عز وجلّ يقول : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ »[1] .

٦ ـ منزلة المسعودي : أشاد المؤرخون والكتاب من عرب وغير عرب بالمسعودي وفضله على الدراسات التاريخية والجغرافية فقال ابن شاكر عنه أنه « كان اخبارياً علاّمة ، صاحب

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ٤/٤٠٩ .

غرائب وملح ونوادر »[1] ووصفه ابن النديم في الفهرست بأنه « مصنّف لكتب التواريخ وأخبار الملوك »[2] برغم أن ابن خلدون كثيراً ما ناقش بعض الأخبار التي رواها المسعودي في كتبه ونقض بعضها ، إلّا أنه أشاد به واعترف بفضله على التاريخ .

وتحدث أحمد أمين عن المسعودي فقال عنه : وأما المسعودي فكان ذا منحى آخر يغاير منحى الطبري ولكل فضل . فألّف لنا المسعودي كتابي مروج الذهب والتنبيه والإشراف ، وضاعت له كتب كثيرة ، وهو ليس مؤرخاً فقط بل هو مؤرخ وجغرافي معاً »[3] .

واهتم المفكرون الغربيون بالمسعودي وإنتاجه العلمي فقاموا بترجمة كتبه منذ القرن التاسع عشر إلى كثير من اللغات الأوروبية ووصفوه بأنه بلينوس الشرق وبعضهم قال بأنه هيرودوت الشرق[4] .

ثانياً ـ مؤلفات المسعودي :

يعتبر المسعودي علماً من أعلام الفكر العربي في عصر

---

(١) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ٢/٥٧ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ٢٢٥ .
(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ٢/٢٠٦ ـ ٢٠٧ .
(٤) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص٤٥٣ .

نضجه ، أي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، فهو واحد من أولئك الذين أحاطوا به إحاطة وافية وتمثّله تمثلاً صحيحاً ، ثم دوّن تلك الإحاطة وهذا التمثل تدويناً شيّقاً أنيقاً بأسلوب سهل ممتع . وليست هذه الأمور لِتتاح لغير عبقري ، فالمسعودي واحد من عباقرة الفكر في ذلك الوقت ، ونحن إن أردنا أن نصنّفه على نحو ما نصنّف أهل العلم والفكر لحِرنا في أمره ، فهو ليس رحّالة ، ولا مؤرخاً ، ولا جغرافياً ، ولا محدثاً أو فقيهاً ، ولكنه كل هذه المجموعة معاً مصقولة في بوتقة الاختبار بعد أن أضفت عليها الرحلة وسعة الأفق والصدر الكثير من العمق والتفكير والدقة في التعبير .

كتب المسعودي عشرات الكتب التي تكشف عناوينها عن عقلية جبارة في التهام المعرفة والفلسفة . وقد سجّل فيها تجربته كلها ، ومعارفه التي جمع ، في شكل تواريخ عديدة من جهة ، وفي شكل كتب منها ما هو في أصل الديانات والمذاهب والنحل ، ومنها ما هو في الأخبار والطرائف ، ومنها ما هو في الفلسفة والحكمة والسياسة . فهو بحق يمثل خلاصة الفكر العربي الإسلامي في عصره . وتمثل ثقافته الموسوعية وعقله الملحاح في الاطلاع ، والكثير التسآل ، أوج ما بلغه العالم العربي المسلم في تلك الفترة من سعة المعرفة .

ومن مزايا المسعودي أنه يشير إلى أسماء مؤلفاته ، ولولا ذلك ما تمكّنا من الوقوف على أسماء أكثرها ، لأن الذين بحثوا عنه

لم يذكروا إلّا عدداً من كتبه . وقد ذكروا بعض الأسماء محرّفة ، فضبط لنا المسعودي أسماء كتبه وذكرها في ثنايا كتابيه المطبوعين : « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » . وإذا بها تبلغ ٣٤ مؤلفاً ، وقد تزيد على ذلك[1] ، إذ لعلّه ذكر أسماء مؤلفات أخرى في كتبه المفقودة التي لم يصل خبرها إلينا . وهي في الفقه والأدب والتاريخ والأخبار والجغرافية ، وهو يروي أن بعض كتبه الأولى كبيرة . ومع ذلك فإن طريقته في التأليف لا تسمح باستبعاد أي كتاب منها من ميدان المؤلفات التاريخية . وباستثناء ثلاثة من هذه المؤلفات وصلت إلينا ، فقد اعتبرت سائر مؤلفات المسعودي في عداد المفقودة ، إذ لم يبق عليها الزمن فضاعت كما ضاع كثير من كنوز المعرفة الإسلامية العظيمة . وهذه الكتب هي :

١ ـ كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والممالك الدائرة :

هو من أوائل مؤلفات المسعودي في التأريخ ، وقد تحدث فيه عن هيئة الأرض ومدنها وعجائبها ، وبحارها ، وأغوارها ، إلى آخر ذلك مما يتعلق بوصفها ، ثم تكلم فيه عن الفلك وعن أكثر الكواكب في الأقاليم السبع ، وعن تباين الناس وتغاير طباعهم ، ثم اتبع ذلك بأخبار الأمم الغابرة والأمم الدائرة ،

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٥ وما بعدها .

والقرون الخالية والحكماء والفلاسفة وكل ما يتعلق بالأمم والرسل والملوك إلى أيام الرسول ، ثم ساق تاريخ الإسلام إلى سنة « ٣٣٢ هـ » وهي سنة الابتداء بتأليف كتاب « مروج الذهب »[١] .

فالكتاب إذاً ، كتاب عام جامع ، تأريخ وفلسفة وآراء ونحل ومذاهب واجتماع ، ووصف وملاحظات . فيه عن الأرض وعن زواج الأخ من أخته والأم من ابنها ، في أيام « آدم » . وتحدّث عنه في « الفن الرابع عشر »[٢] ، وفيه « جيل مران » وموضع قبر هارون وملوك بني إسرائيل ، وذي القرنين ، والهند وسياستها وسِيَرها ، وعن المانوية والمرقيونية والديصانية والمزدكية[٣] . وعن تنازع الفلاسفة والحكماء واليونان في أصل تكوّن البحار وعللها ومساحاتها ، والمد والجزر ، وقد تحدث عن هذا الموضوع في « الفن الثاني من جملة الثلاثين فناً »[٤] . وفيه عن أصول استنباط المياه من جوف الأرض وفي كيفية الاستفادة من الماء لأغراض الفلاحة وفي الأمور الأخرى[٥] ، وعن الصين والمغرب ، وعن علل تكون البراكين ، وعن « القردة »

---

(١) مروج الذهب ١/١ وما بعدها .
(٢) مروج الذهب ١/٢٥ .
(٣) مروج الذهب ١/٧٩ .
(٤) مروج الذهب ١/١٠٤ ، ١٠٦ .
(٥) مروج الذهب ١/١٠٨ .

و « النستاس » ، وعن ملوك بابل وملوك فارس وملوك اليونان ، وعن الشعوبية ومناظرات السودان والبيض ، والعرب والعجم ، إلى غير ذلك من بحوث أشار إليها في كتابيه المذكورين . وبذلك عرفنا معرفة دقيقة بفهرست ما ورد في الكتاب من مواد وبحوث ، وأحاطنا علماً بما حواه من موضوعات .

ويظهر من جملة « وقد ذكرنا في كتابنا أخبار الزمان في الفن الثاني من جملة الثلاثين فناً »[١] ، الواردة في كتاب « مروج الذهب » أن كتاب « أخبار الزمان » كان يتكون من ثلاثين فناً ، أو قسماً ، أو فصلاً . وقد كان الفصل الثاني من هذه الفصول في البحار والمياه ، وما يتعلق بالبحار من الأمور .

وتوجد أجزاء من هذا الكتاب في بعض خزائن الكتب ، نصّ بروكلمان في كتابه « تاريخ الأدب العربي » على أماكنها[٢] دون أن يذكر مبلغ صحة نسبتها إلى الكتاب الأصل .

وقد طبع في القاهرة ، وفي سنة ١٩٣٨ كتاب بعنوان : أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران » نسب إلى المسعودي[٣] وقد ذكر بروكلمان بأنه

(١) مروج الذهب ١٠٤/١ ، ١٠٦ ، ٢٨٩ .
(٢) بروكلمان ٥٧/٣ .
(٣) حقّقه عبد الله إسماعيل الصاوي ، ثم طبع في بيروت بنفس التحقيق وصدر عن دار الأندلس عام ١٩٦٦ .

الجزء الأول من الكتاب المذكور . أما النسخة المطبوعة ، فلم تشر إلى أنها الجزء الأول من الكتاب ، وإنما انتهت بهذه العبارة : تمّ وكمل كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان من الغامر بالماء والعمران »[1] أي أن الكتاب هو كتاب واحد ، لا جملة أجزاء . وجملة صفحاته المطبوعة ٢٥٢ صفحة وهو أصغر حجماً من كتاب « التنبيه والإشراف » .

ويبدأ الكتاب بجملة « قال الشيخ أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبد الله الهذلي المسعودي ، رحمه الله ورضي عنه »[2] . وكاتبه ، رجل اسمه : « عبد الرحمن بن محمد بن محمد البصري » ، وقد فرغ منه « تاسع عشر جمادى الأولى أحد شهور سنة اثنين وثمانين وثمانمائة »[3] . والعنوان ، هو عنوان يختلف بعض الاختلاف عن عنوان كتاب المسعودي الذي هو « أخبار الزمان ، ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية ، والأجيال الخالية والممالك الدائرة » .

وقد وردت في ثنايا الكتاب أسماء عدد قليل من الكتب والأشخاص ، فورد في أثناء كلامه عن الجن اسم كتاب دعاه : « كتاب الخزانة »[4] وذكر في موضوع « ذكر الأرض وما فيها »

---

(١) أخبار الزمان ص ٢٥٢ .

(٢) أخبار الزمان ص ١ .

(٣) أخبار الزمان ص ٢٥٢ .

(٤) أخبار الزمان ص ١٧ .

اسم « ابن عبد الحكم »[1] ، ونقل عن « كتاب الطيب » لإبراهيم بن المهدي[2] . وأورد اسم « أبو صالح » كاتب الليث[3] ، كما أشار إلى اسم الفقيه « أبو الحسن عباد بن سرحان » من أهل بغداد ، وإلى اسم « أبي الطيّب أحمد بن روح » وإلى اسم كتاب دعاه « كتاب العظمة » ، اقتبس منه[4] .

ويشكك المؤرخ جواد علي في أن يكون الكتاب المطبوع ، هو كتاب المسعودي ذلك أن المسعودي ذكر محتويات ذلك الكتاب ، وذكر أنه كان في ثلاثين فناً ، وأنه اختصره ، وسمى مختصره « الكتاب الأوسط » . في حين أن الكتاب المطبوع ، هو كتاب صغير ليس فيه ما ذكره المسعودي من عناوين بحوث ، وليس فيه تصنيف وتبويب يشبه ما ذكره المسعودي عن محتويات كتابه ، وهو للأسباب نفسها لا يمكن أن يكون اختصاراً له ، لأن الكتاب المختصر ، يكون اختصاراً للكتاب ، ولا يمكن أن يكون غيره . وهو لا يمكن للأسباب المذكورة أن يكون أيضاً جزءاً منه[5] . كما أن أسلوب الكتاب المطبوع وإنشاؤه يختلفان عن أسلوب وإنشاء كتابي المسعودي المطبوعين . فهو في هذا

(١) أخبار الزمان ص ١٨ .
(٢) أخبار الزمان ص ٢٣ .
(٣) أخبار الزمان ص ٢١٤ .
(٤) أخبار الزمان ص ٢١٤ .
(٥) جواد علي : موارد المسعودي ص ٧ مجلة سومر المجلد ٢٠ الصادر ١٩٦٤ العدد ١ - ٢ .

الكتـاب بارد ركيـك ، لا نجد فيـه متانـة أسلوب المسعـودي وسلاسته وقوته وتأثيره . ثم إن مؤلف الكتاب أو جامعه غارق إلى أذنيه في الأساطير لم يفهم التاريخ إلاّ أنه خرافات وقصص وأسحار ، فهو من ألفه إلى يائه قصص بارد وأحاديث خرافة على طراز أحاديث وهب بن منبه وعبيد بن شرية ، أما المسعودي ، فإنه إن ذكر الخرافات والأساطير ، فإنما يذكرها على أنها قصص شائع يرويه الناس ، فهو يرويه لشيوعه بينهم ، فهو حاك له لا أكثر(١) .

ونجد المسعودي يسير على هذا المنوال في نقده للأساطير والخرافات وفي التعليق عليها . وهو إن ذكر بعضها بغير تعليق أو قصّها بأسلوب يشعر أنه كان يعتقد بها ، فإننا يجب أن نتذكر أنه كان قد عاش قبلنا بأكثر من ألف عام ، وأن الناس في أيامه كانوا يعتقدون بها ، ولا يرون أنها مجافية للعقل ، وأن الإنسان لا يمكن أن يتجرد من كل المعتقدات والآراء المحيطة به تجرداً تاماً ، وأنه لا بدّ وأن يتأثر بروح زمانه ، وأن غيره مثل الطبري رووا ما رواه ، وذكروا نوع ما ذكره ، فلم يكن هو إذاً بـدعاً ووحيد زمانه في هذه الأمور .

٢ ـ **الكتاب الأوسط** : هو الكتاب الثاني في جريدة مؤلفات المسعودي ، وهو مثل كتاب أخبار الزمان موسوعة في التأريخ

(١) انظر مروج الذهب ٢/٧٣

العام « من لدن البدء إلى الوقت الذي انتهى كتابنا الأعظم وما تلاه من الكتاب الأوسط »[1] . وهو كتاب مفصّل وسط بين كتابه الأول وبين كتبه الأخرى التي ألّفها فيما بعد . اختصر فيه ما جاء مفصلاً في « أخبار الزمان » ، وأضاف إليه أموراً جديدة لم ترد في الكتاب الأول ، يظهر أنه لم يكن قد وقف عليها يوم ألّف كتابه السابق ، أو أنها وقعت بعد انتهائه من تأليف ذلك الكتاب . ولهذا نجده يشير إلى الكتابين في أماكن عديدة من مروج الذهب وكتاب التنبية والإشراف ، مجتمعين ، يذكر « أخبار الزمان » أولاً ثم يثني بذكر اسم « الكتاب الأوسط » بأن يذكر أنه بحث عن الموضوع الفلاني في الكتابين المذكورين ، ليرشد القارىء إليهما ، وليدّله على أنه تكلم هناك ولا سيما في أخبار الزمان بتبسط وتفصيل . ونراه يشير إلى الكتاب الأوسط وحده في بعض الأحيان ، دلالة على أنه تحدث فيه عن الموضوع المذكور ، وقد يذكر كتاب أخبار الزمان وحده للغرض نفسه .

مروج الذهب ومعادن الجوهر : هو ثالث مؤلفات المسعودي في التأريخ العام . وقد ذكر في مقدمته الأسباب التي حملته على تأليفه « رأينا إيجاز ما بسطناه ، واختصار ما وسطناه في كتاب لطيف نودعه لمع ما في ذينك الكتابين مما ضمّناهما .

(١) مروج الذهب ١/٢ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ١٢٣ ، ١٤٨ ، ٢٣٦ ، ٢٦٨ ، ٢٨٨ ، ومواضع أخرى .

وغير ذلك من أنواع العلوم ، وأخبار الأمم الماضية ، والأعصار الخالية ، مما لم يتقدم ذكره فيهما »[1] فالكتاب إذاً هو إيجاز للكتابين واختصار لهما ، مع إضافات وزيادات لم ترد في الكتابين المتقدمين عن أمور طرأت على المؤلف ، وعن حوادث جديدة علم بها بعد انتهائه من كتابة الكتابين الماضيين .

وقد شرع المسعودي بتأليف هذا الكتاب سنة ٣٣٢ هـ . ولما حل شهر ربيع الأول سنة ٣٣٢ هـ كان قد بلغ في مسودته مبحث « البجّة » من باب « ذكر السودان وأنسابهم »[2] . ثم استمر في تسويده وإكماله إلى أن انتهى منه في جمادى الأولى سنة ٣٣٦ هـ ، وكان ذلك بفسطاط مصر . فكانت هذه النسخة هي النسخة الأولى للكتاب ، وتقع في « ١٣٢ » باباً ، أولها : « باب ذكر جوامع أغراض هذا الكتاب » ، وآخرها « ذكر تسمية من حج بالناس من أول الإسلام إلى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وذكر ألقابهم »[3] . فتكون مدة اشتغاله بها حوالي أربع سنوات . وتنتهي حوادثها بحوادث سنة ٣٣٦ للهجرة .

وهذه النسخة هي النسخة المطبوعة ، ويسميها المسعودي « النسخة المؤلفة سنة ٣٣٦ هـ »[4] تمييزاً لها عن النسخة

---

(١) مروج الذهب ١/٢ .

(٢) مروج الذهب ١/٣٣٤

(٣) مروج ١/١٨ ، التنبيه ١٣٣ .

(٤) التنبيه ص ١٣٣ .

الأخيرة التي رضي عنها واعتبرها النسخة الكاملة وذلك سنة ٣٤٥ هـ[١] ، وهي أضعاف ما تقدم من النسخة المؤلفة في سنة ٣٣٦ هـ ويقول « وفي النسخة الأخيرة من كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، التي قررنا أمرها في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا ، وهي أضعاف ما تقدم من النسخ »[٢] . وتتكون من « ثلاثمائة وخمسة وستين جزءاً ، فإذا اجتمع كانت سمنه كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، وإذا افترق كان كل جزء منه كتاباً قائماً بنفسه ، مضافاً إلى ما اشتمل عليه وأفرد له »[٣] ، وتنتهي حوادث هذه النسخة الأخيرة بحوادث سنة ٣٤٥ هـ أي أن حوادثها تزيد تسع سنين على حوادث النسخة الأولى . وعلى الرغم من هذه الزيادة ، ومن ضخامة النسخة الثانية ، فإنها لم تبلغ مبلغ النسخة الأولى من الانتشار بين الناس كما صرح بذلك المسعودي نفسه[٤] . وقد منع شيوع هذا الأصل التعديل من الرواج والبقاء . وبقي بيد الناس الأصل فقط دون النسخة المعدّلة ، فطبع جملة طبعات .

(١) « النسخة الأخيرة التي قررنا أمرها في هذا الوقت ، وهي سنة ٣٤٥ ، وهي أضعاف ما تقدم من النسخة المؤلفة في سنة ٣٣٦ هـ ، التنبيه والإشراف ص ١٣٣ .

(٢) التنبيه والإشراف ١٤٩ .

(٣) التنبيه والإشراف ٩٧ .

(٤) التنبيه والإشراف ص ٨٥ .

ويظهر أن المسعودي كان قد رتّب النسخة الأخيرة على أجزاء ، فقد أشار في كتاب « التنبيه والإشراف » وفي باب تأريخ الفرس أنه بحث عنهم في الجزء السابع من « كتاب المذهب ومعادن الجوهر ، في النسخة الأخيرة التي قررنا أمرها في هذا الوقت »[1] ويظهر من التلميحات التي ذكرها عن هذا الباب أنه كان بحثاً مفصلاً شمل نواحي عديدة لم تذكر في النسخة الأولى ، أي النسخة المطبوعة الباقية . فلما بحث في كتاب التنبيه عن « سابور بن اردشير » قال أنه بحث عنه في الجزء السابع من الكتاب المذكور . وفي جملة ما ذكره من أخباره في هذا الجزء مسير يوليانوس إلى أرض العراق في ملك سابور ، وهلاكه هناك ، ومسير سابور لمحاربته وما وقع بينهما من حروب[2] وكل ذلك غير وارد في النسخة المطبوعة ، مما يؤيد اختلافها عن النسخة الأخيرة المعتمدة .

يمثل مروج الذهب المسعودي المؤرخ تمام التمثيل ، كما يعتبر نموذجاً لتآليفه التاريخية خاصة ، ومن أبرز المصنفات العربية عامة . وهو ليس تاريخاً متصلاً ، ولكنه يتألف من مجموعة من الأحداث والأخبار رتبها المسعودي ترتيباً موضوعياً في مئة واثنين وثلاثين باباً ، يمكننا أن نقسمها إلى قسمين مميزين :

---

(١) التنبيه والإشراف ٨٢ ، ٨٤ .

(٢) التنبيه والإشراف ص ١٢٥ .

ـ القسم الأول : ويتـألف من نصف الكتـاب تقـريبـاً ، ويخصص المسعودي معظمه لتاريخ ما قبل الإسلام من الأمم ، بادئاً من قصة خلق العالم ، ماراً عبر بني إسرائيل إلى ذكر أهل الفترة من الموحدين ، ممّن كان بين المسيح ومحمد . وبعد أن يذكر جملاً من أخبار الهند الثقافية والدينية يعطف إلى ذكر ملوك الصين والترك ، وأخبار الأمم من اللان والخزر وجبل القنج والبرغر (القوقاز والبلغار) ثم ملوك السريان والآشوريين وملوك بابل الكلدانيين ، وملوك الفرس الأولى ، ثم الطوائف الثانية ، ثم الساسانية ، ثم اليونان ، فالروم المتنصرة ، وينتقل بعدها إلى مصر فيذكر أخبار غيلها وملوكها ، والاسكندرية ، ثم يذكر السودان وأجناسهم وملوكهم ، ثم الصقالبة والفرنجة والجلالقة وملوكهم ، والنوكبرد وملوكها ، ليعطف في النهاية إلى أخبار عاد وثمود ، وجرهم في مكة ، وملوك اليمن والحيرة وغسان ، فتاريخ العرب الثقافي في الجاهلية . ثم يذكر تقاويم الأمم في التأريخ وسننها وشهورها حتى يصل ، وقد قضى نصف الكتاب أو يزيد ، إلى البعثة النبوية والدولة العربية الإسلامية منذ عهد الرسول إلى خلافة عثمان بن عفان .

ـ القسم الثاني : يبدأ المسعودي هذا القسم بخلافة علي بن أبي طالب لينتقل إلى الخلفاء الأمويين ، فالعباسيين خليفة خليفة حتى سنة ٣٣٥ هـ .

والمسعودي يستوفي في تاريخه العالمي مختلف الأمم ،

ويمنحها في نوع من التوازن نصف الكتاب . وهو يؤكد على العناصر الحضارية في تواريخها ، وكذلك على العناصر الفكرية والدينية . ورغم أنه صادق الإيمان بدينه الإسلامي ، فهو لا يتردد في ذكر أخبار الأديان الأخرى ومقالاتها بموضوعية العالم المحايد ، وإذا أورد بعض المعلومات الكلامية والفلسفية في ثنايا التاريخ فإنه أورد في الآن ذاته أخبار الخوارق والعجائب وبعض الأساطير أحياناً .

أشار المسعودي في كتاب مروج الذهب إلى كثير من كتبه التي ضاعت فلم تصل إلينا ، وإلى كتب غيره من المؤرخين التي لاقت نفس المصير مما يدل على أنه قرأ كثيراً منها واعتبرها مصادر لكتابه إلى جانب مشاهداته وما سمعه خلال رحلاته . ففي الباب الأول نرى المسعودي وقد سلك مسلك المؤلفين المحدثين حين تحدث عن دافعه إلى تأليف هذا الكتاب والمصادر التي اعتمد عليها مع عقد مقارنة بينها ، فيبدأ الباب الأول بحديث المسعودي عن كتاب « أخبار الزمان » ، ثم يتحدث عن كتابه الثاني « الأوسط » ثم تحدث عن الدافع له على تأليف كتاب مروج الذهب فقال :

« رأينا إيجاز ما بسطناه واختصار ما بسطناه في كتاب لطيف نودعه لمع ما في ذنيك الكتابين ممّا ضمّناهما ، وغير ذلك من أنواع العلوم ، وأخبار الأمم الماضية والأعصار الحالية ، مما لم يتقدم ذكره فيهما » .

وحدد المسعودي أهدافه من تأليف مروج الذهب فقال أنه أراد : « احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء وقفاها الحكماء وأن يبقى للعالم ذكراً محموداً وعلماً منظوماً عتيداً »[١] .

وتحدث المسعودي في الباب الثاني عن محتويات جميع أبواب الكتاب ، فهو بمثابة فهرس مفصل لمواضعه ، وقد بلغ عدده مائة واثنان وثلاثون باباً . وختم المسعودي هذا العرض بقوله :

« فهذه جوامع ما حوى هذا الكتاب من الأبواب ، على أنه قد يأتي في كل باب ممّا ذكرناه من أنواع العلوم وفنون الأخبار والآثار ما لم تأت عليه تراجم الأبواب ، وهو مرتب على حسب ما قدّمنا من أبواب نفردها من سيرهم ، والجوامع مما كان في أعصارهم وأخبار وزرائهم ، وما جرى من أنواع العلوم في مجالسهم ملوّحين بذلك إلى ما سلف من تصنيفنا وتقدم من تأليفنا في هذه المعاني والفنون »[٢] .

كما يضع المسعودي ، شأن المعاصرين ، لكتابه خاتمة طويلة يبدأها بالربط بين ما ذكره في كتاب مروج الذهب وكتابيه الآخرين أخبار الزمان والأوسط ، ويذكر أنه انتهى من كتابه مروج الذهب في جمادى الأولى عام ٣٣٦ هـ . ويحاول

---

(١) مروج الذهب ١/٩ .

(٢) مروج الذهب ١/١٩ ـ ٢٨ .

المسعودي أن يوضح للقارىء أنه لم يكرر في كتابه مروج الذهب ما ذكره في كتابيه الآخرين . وعن أبرز ما تناوله من موضوعات في المروج يقول :

« ودللنا على كتابنا بالقليل على الكثير ، وبالخبر اليسير على الجليل الخطير ، وذكرنا في كل كتاب من هذه الكتب ما لم نذكره في الآخر ، إلّا ما لا يسع تركه . ولم نجد بدأ من إيراده لما دعت الضرورة إلى وضعه وأتينا على أخبار أهل كل عصر وما حدث فيه من الأحداث وما كان فيه من الكوائن إلى وقتنا هذا ، مع ما أسلفنا في هذا الكتاب من ذكرنا البر والبحر ، والعامر منهما والغامر ، والملوك وسيرها ، والأمم وأخبارها » .

كما أبدى المسعودي أمله في أن تطول حياته فيؤلف كتاباً آخر يضمنه فنوناً من الأخبار وأنواعاً من طرائف نوادر الآثار ، على غير نظم من التأليف ولا ترتيب من التصنيف على حسب ما يسنح من فوائد الأخبار ويوجد من نوادر الآثار . واختار المسعودي له اسماً ، هو « وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار » ولم تتحقق أمنية المسعودي إذ وافته المنية قبل أن يؤلف هذا الكتاب[١] .

يوجد مروج الذهب مخطوطاً في كثير من مكتبات العالم[٢] .

---

(١) مروج الذهب ١/٣٨٥ .

(٢) مروج الذهب ١/٣٠٢ ، ٣٦٥ .

كما توجد مخطوطة لترجمة فارسية لقسم منه في مكتبة كلية الفلسفة بطهران ١٢٥ رقم ١٦١ ج . وترجمة فارسية أخرى أعدّها ميرزا جيد علي فخر الأدباء عام ١٣١٦ هـ/ ١٨٨١ - ١٨١٩ في طهران أيضاً رقمها ٢٤٧ .

وقد عرف الغربيون المسعودي منذ القرن الثامن عشر من خلال الكثير من القطوف والنقول عن مروج الذهب الذي ترجمت أيضاً أقسام كثيرة منه إلى مختلف اللغات قبل أن يترجم باربيه دي مينار الكتاب إلى اللغة الفرنسية مع النص العربي في تسعة مجلدات بعنوان :

- Macondi: Les Prairis d'or, textes et traduction Par C. Barbier de Meynard Paris 1861- 1877.

كما ترجم المستشرق سبرنغر الجزء الأول منه ، وفيه السبعة عشر فصلاً الأولى وذلك في لندن سنة ١٨٤٦ م تحت عنوان :

- History of the ommyyades from Massud'y Golden Medow's by A. Sprenger an Moulae Mamlak Aly in Hist. Sel. from Arabic Authors 1/ 1846.

ثم تتالت طبعاته بعد ذلك في مصر ولبنان .

التنبيه والإشراف : وهو آخر مصنّف للمسعودي جمع فيه خلاصة مجهوده الأدبي . وقد ألّفه سنة ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦ م . وقد

ذكر المسعودي الغرض من تأليفه كتاب التنبيه والإشراف فقال إنه أراد أن :

« نودعه لمعاً من ذكر الأملاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها ، والعناصر وتركيباتها . وكيفية أفعالها ، والبيان من قسمة الأزمنة وفصول السنة ، والأرض وشكلها وما قيل في مقدار مساحتها وعامرها وغامرها ، والنواحي والآفاق وما يغلب عليها تأثيراتها في سكانها ، وذكر الأقاليم السبعة ، وذكر البحار ومصبات عظام الأنهار إليها ، وذكر الأمم السبع في سالف الزمان ، وجامع تاريخ العالم والأنبياء والملوك من آدم إلى نبينا محمد ﷺ ، وذكر مولد النبي ﷺ ومبعثه وهجرته وعدد غزواته وسراياه وسواريه وكتّابه ووفاته ، والخلفاء بعده ، والملوك وأخلاقهم وألقابهم ووزارءهم وقضاتهم وحجابهم ونقوش خواتيمهم . وما كان من الحوادث العظيمة الديانية والملوكية في أيامهم وحصر تواريخهم إلى وقتنا هذا وهو سنة ٣٤٥ للهجرة في خلافة المطيع » .

يوجد التنبيه والإشراف مخطوطاً في : باريس أول ١٤٨٧ . وقد ترجم إلى اللغة الأوردية (حيدر آباد ١٩٢١) . كما نشره دي غويه في ليدن ١٨٩٤ م ضمن المكتبة الجغرافية . فأصبح الجزء الثامن من هذه المكتبة وجاء في خمسمائة صفحة علّق عليها دي غويه وذيّلها بملاحظات كثيرة نافعة . وهو يذكر أن المستشرق دي ساسي كان قد راجع الكتاب وعلّق عليه قبل ذلك

في عام ١٨١٠ . كما ترجمه كارا دي فو إلى الفرنسية تحت عنوان :

- Carra de Vaux: Le livre de l'Avertissement et de la révision Paris 1896.

وقد نشره عبد الله إسماعيل الصاوي بمصر عام ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٨ .

٤ ـ كتب المسعودي المفقودة : للمسعودي كتب أخرى كثيرة لم تصلنا للأسف وكان مصيرها الضياع . وقد أشار إليها في مواضع مختلفة من كتابيه : مروج الذهب والتنبيه والإشراف .

ألّف المسعودي جملة كتب قبل تأليفه لكتاب « مروج الذهب » أشار إليها في كتابه هذا على النحو التالي وجملة هذه الكتب هي ١٩ كتاباً :

- ـ كتاب الابانة عن أصول الديانة[١] .
- ـ كتاب المقالات في أصول الديانات[٢] .
- ـ كتاب سر الحياة[٣] .

---

(١) مروج الذهب ١٣/١ ، ١١٥/٢ ، ١٩١ .
(٢) مروج الذهب ٣٤٩/٢ ، ٤٤١ .
(٣) كتب الاستبصار في الإمامة ووصف أقاويل الناس في ذلك ، من أصحاب النص والأخبار ، وحجاج كل فريق منهم : مروج الذهب ٣/١ ، ٧٩ و١٧٣/٢ .

- كتاب نظم الأدلة في أصول الملة .
- كتاب الاستبصار في الإمامة[1] .
- كتاب الصفوة في الإمامة[2] .
- كتاب الزلف[3] .
- كتاب القضايا والتجارب[4] .
- كتاب راحة الأرواح[5] .
- كتاب طب النفوس[6] .
- كتاب حدائق الأذهان[7] .
- كتاب الاسترجاع[8] .
- كتاب الرؤوس السبعة في الاحاطة بسياسة العالم وأسراره[9] .
- كتاب الرؤيا والكمال[1] .

---

(١) مروج الذهب ١/٣ و٢/١٧٣ .
(٢) مروج الذهب ١/١٨٧ ، ٢٢٩ ، ٢٧٣ و٢/١١٧ ، ١٢١
(٣) مروج الذهب ١/٣٠٧ و٢/١٠٣ .
(٤) مروج الذهب ١/٣٠٩ .
(٥) مروج الذهب ١/٣٧٥ و٢/٨٧ .
(٦) مروج الذهب ٢/٨ .
(٧) مروج الذهب ٢/٧٩ .
(٨) مروج الذهب ٢/٨٢ ، ١٢١ .
(٩) مروج الذهب ٢/٨٨ .
(١) مروج الذهب ٢/١١٧ .

- كتاب المبادىء والتراكيب[1] .
- كتاب الزاهي[2] .
- كتاب مزاهر الأخبار وطرائف الآثار للصفوة النورية والذرية الزكية أبواب الرحمة وينابيع الحكمة[3] .
- رسالة البيان في أسماء الأئمة[4] .
- كتاب الدعاوي[5] .

وذكر المسعودي في خاتمة كتابه « مروج الذهب » أنه سيلحق « تأليف هذا الكتاب بكتاب آخر ، نضمنه فنوناً من الأخبار وأنواعاً من ظرائف الآثار على غير نظم من التأليف ولا ترتيب من التصنيف على حسب ما يسنح من فوائد الأخبار ، ونترجمه بكتاب وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار ، تالياً لما سلف من كتبنا ولاحقاً بما تقدم من تصنيفنا »[6] . فهو إذاً أقدم عهداً من كتاب التنبية والإشراف . وقد أكمله قبله بدليل إشارته إليه فيه .

---

(١) مروج الذهب ٢/١٧٣ .
(٢) مروج الذهب ٢/٣٠١ . « كتاب مزاهر الأخبار وظرائف الآثار في أخبار النبي ﷺ » ، مروج الذهب ٢/٣٠١ ، ٤١٢ .
(٣) مروج الذهب ٢/٣٤٨ .
(٤) مروج الذهب ٢/٦٩ .
(٥) مروج الذهب ٢/٣٨٥ .
(٦) مروج الذهب ١/٣٠٢ ، ٢/٥٠ ، ١١٥ ، ١٩١ ، ٣٤٩ .

والكتب التسع عشر المذكورة هي كما يتبين من عناوينها ومن إشارة المسعودي إلى بعض موضوعاتها في ثنايا كتابيه في المذاهب والممل والنحل والآراء وفي الفلسفة . ففي أثناء كلامه على الديانات تطرق إلى ذكر عالم قبطي قال عنه أنه ناظر مناظرات في النصرانية وفي اليهودية وفي الإسلام ، ثم قال : « وقد أتينا على ما احتمل منها إيراده في كتابنا أخبار الزمان وذكرنا جميع ذلك في كتابنا : المقالات في أصول الديانات . وكان هذا القبطي ، على ما نمي إلينا من خبره ، وصح عندنا من قوله ، يذهب إلى فساد النظر والقول بتكافؤ المذاهب »[1] .

وفي أثناء كلامه على أهل الغلو في الإسلام وعلى الفرق والمذاهب وأصحاب تناسخ الأرواح وأمثالهم ، وعن الخوارج وأصول المعتزلة الخمسة ، وعلى سائر أقوالهم في الأصول وفي الفروع ، وعن المرجئة والرافضة والزيدية والحشوية وفرق الشيعة ، وعن أقاويل الأمم في الربوبية وفي عالم العقل وعالم النفس وعالم الطبيعة ، ومراتب الروحانية وفي أصحاب الديانات مثل النصارى والحنفاء والكلدانيين وهم البابليون الذين بقيتهم في هذا الوقت بالبطائح بين واسط والبصرة في قرى هناك ، وتوجههم في صلاتهم القطب الشمالي والجدي »[2] . وعن « رسالة بولس إلى أهل رومية » ويسميها « كتاب

(١) التنبيه والإشراف ص ١٣٧ .
(٢) التنبيه والإشراف ١٣٧ .

السليخ »[1] ، وعن المذاهب الغريبة التي ظهرت في أرض الخلافة مثل الحزمية والكوذكية منهم والكوذشاهية وعن الشعوبية وعن تصرف المسلمين مع الفاسقين[2] ، وأمثال ذلك من موضوعات ، قال أنه تحدث عنها كلها في كتابه المذكور : كتاب المقالات في أصول الديانات .

وقد تطرق المسعودي في كتابه « الابانة عن أصول الديانة » إلى الحديث عن أكثر هذه الموضوعات وتبسط في بعضها ، مثل رأي الشيعة ، ورأي المعتزلة في الإمامة والفرق بينهما فيها[3] . ويظره أن الكتابين متماثلان ومتشابهان ، ولعل الفرق بينهما هو في الطول وفي الاختصار ، فكأن أحدهما بالنسبة للآخر بمثابة الكتاب الأوسط بالنسبة لكتاب أخبار الزمان .

ونلاحظ أن موضوع الإمامة قد نال عناية خاصة عند المسعودي ، فألف فيها جملة كتب هي : « الاستبصار في الإمامة ووصف أقاويل الناس في ذلك من أصحاب النص والأخبار ، وحجاج كل فريق منهم » و« كتاب الصفوة في الإمامة » و« كتاب الاستبصار في الإمامة » و« كتاب الانتصار

---

(١) مروج الذهب ٢٩٣/١ ، ٣٦٥ ، التنبيه والإشراف ص ٣٠٦ .

(٢) مروج الذهب ٧٩/١ ، ١٩١/٢ .

(٣) مروج الذهب ٥٠/١ ، ١٧٣ ، والمقدمة ص «جـ» ، ٣/١ (طبعة محي الدين عبد الحميد) .

في الإمامة » . ويظهر أنهما كتاب واحد إلّا أن النسّاخ وقعوا في خطأ فكتبوا لفظة « الاستبصار » « الانتصار » فصار الكتاب بهذا التحريف كتابين ، بدليل ما نراه من الاضطراب في طبعات مروج الذهب من تسمية الكتاب « الاستبصار » تارة وبـ « الانتصار » تارة أخرى[١] .

ولما تحدث عن إسلام علي بن أبي طالب ، وآراء الناس فيه ، ذكر أنه فصّل الحديث فيه في كتابه « الزاهي »[٢] مما يدل على أنه تطرق فيه إلى موضوع الإمام علي وإمامته . وتعد كتبه الأخرى وهي : « كتاب حدائق الأذهان في أخبار آل محمد عليه الصلاة والسلام » وكتاب « مزاهر الأخبار وظرائف الآثار ، للصفوة النورية والذرية الزكية أبواب الرحمة وينابيع الحكمة » و « رسالة البيان في أسماء الأئمة » أبحاثاً في الإمامة والأئمة في آل الرسول . وقد أشار إلى كتاب مزاهر الأخبار في أثناء حديثه على علي بن أبي طالب ، وأشار إلى « رسالة البيان » في أثناء كلامه على وفاة الإمام محمد بن علي بن موسى الرضا ، وذلك عند تحدثه عن اختلاف أهل الإمامة في مقدار سنة عند وفاة أبيه . فجاء بآرائهم وبآراء القطعية في هذه الرسالة[٣] . كما أشار إليها أثناء حديثه على تنازع الناس في قبر الإمام علي ،

---

(١) مروج الذهب ١/١٧٣ .

(٢) مروج الذهب ٢/٣٤٨ .

(٣) التنبيه والإشراف ص ٢٥٧ وما بعدها .

فذكر أنه تحدث فيها عن ذلك ، كما تحدث فيها عن « مقاتل آل أبي طالب وأنسابهم ومواضع قبورهم ومصارعهم » و «مقادير أعمارهم وكيفية إعدادهم » كما تحدث عنها في كتابه أخبار الزمان[1] .

وقد طبع كتاب بعنوان : « إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام » نُسب للمسعودي . وقد ختم الكتاب بهذه العبارة : « وللصاحب عليه السلام ، منذ ولد إلى هذا الوقت ، وهو شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، ست وسبعون سنة وأحد عشر شهراً ونصف شهر . قام مع أبيه أبي محمد أربع سنين وثمانية أشهر . ومنها منفرداً بالإمامة اثنتان وسبعون سنة وشهوراً . وقد تركنا بياضاً لمن يأتي بعدنا والسلام »[2] .

ويبدأ الكتاب بالحديث عن « العقل » و « جند العقل » ثم عن هبوط آدم من الجنة فالأنبياء حتى يأتي إلى رسالة الرسول ثم الأئمة . ويستعمل المؤلف في القسم الأول من الكتاب الذي ينتهي برسالة الرسول « رُوي » بصيغة الفعل المبني للمجهول . أما في القسم الثاني ، ولا سيما في أثناء بحثه عن الأئمة الاثني عشر ، فإنه يستعمل « السند » ، كما يلاحظ أن أسانيده هذه لا

---

(١) رسالة في إثبات الوصية لعلي بن أبي طالب ، النجف منشورات المطبعة الحيدرية سنة ١٩٥٥ م .

(٢) إثبات الوصية ص ٩ طبعة النجف .

يوجد لها ذكر في كتابيه « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » مما يحمل على الظن أن هذا الكتاب هو لشخص آخر . كما أن أسلوبه وطريقة تأليفه وصيغته وإنشاءه لا تتفق مع تلك التي للمسعودي . ونسبته إلى المسعودي قضية سهلة القبول لا سيما أن للمسعودي جملة كتب في الإمامة .

هذا وللمسعودي مؤلفات في الفقه وفي أصوله ، منها كتابه : كتاب « نظر الأدلة في أصول الملة » وقد اشتمل على القياس وكيفية الاجتهاد في الأحكام ، ووقع الرأي والاستحسان ومعرفة الناسخ من المنسوخ وكيفية الاجماع وماهيته ، ومعرفة الخاص والعام ، والأوامر والنواهي ، والحظر والإباحة ، وما أتت به الأخبار من الاستفاضة والآحاد ، وأفعال النبي ، وأصول الافتاء وأمثال ذلك[1] . وهو في عداد كتبه المفقودة .

وله بحوث في علوم الفلسفة والنفس والأخلاق ، ومن مؤلفاته فيه « كتاب سر الحياة » وقد بحث فيه عن النفس والجسم ، وعن النفس الناطق والنفس العلامة ، والنفس الحسية ، وعن الروح ومذاهب الناس فيها وفي تنقل الأرواح بعد الموت . وعن الدوافع النفسية التي تجعل الإنسان يحس بالحنين إلى الوطن ، والعلة التي تجعل النفوس تحن إليه »[2] .

---

(١) مروج الذهب ١/٣ .

(٢) مروج الذهب ١/١٨٧ ، ٣٤٩ ، ٣٧٥ . و٢/٦٩

وتحدث عن هذا الحنين في كتاب آخر هو « كتاب طب النفوس »[1] وقد عالج فيه سبب الضحك واللعب وأنواع السرور والحزن والخوف . كما عالج هذه الموضوعات في كتاب آخر له اسمه « كتاب الرؤيا والكمال »[2] . وفي كتاب « الزلف » تحدث عن النفس والجسم والنفوس الناطقة والعلامة والنفس الحية ، وتأثير الموسيقى والأنغام ومناسبة النغم للأوتار وممازجة النفس والألحان وكيفية تولد الطرب وأنواع السرور ، وذهاب الغم وزوال الحزن وعلل ذلك الطبيعية والنفسية ، وتأثير الكواكب على حياة الإنسان وعلى الأخلاط والطبائع الأربعة ، وعلى أوج الشمس عند انفصالها إلى البروج وما يحدث للعالم عند ذلك . كما تحدث فيه أيضاً عن الخصال التي يستحق الملك بها المُلْك ورأي الحكماء من الفرس واليونان في ذلك[3] .

وأما كتاب « الرؤوس السبعة في الإحاطة بسياسة العالم وأسراره » فهو في أسرار الطبيعة وخواص تأثير الأشخاص العلوية والأجسام السماوية في الأرض وفي حياة الإنسان . وقد تحدث فيه عن طبائع العالم وعلاقة ذلك بالجهات الأربع وآراء الناس

---

(١) مروج الذهب ١/٣٧٥ .
(٢) مروج الذهب ٢/٨٧ .
(٣) مروج الذهب ١/١١٧ ، ١٢١ ، ١٨٧ ، ٢٢٩ ، ٢٧٣ .

فيها . وقد نعت كتابه بأنه كتاب مشهور مستوعب[١] .

ولا نعلم من أمر « كتاب المبادىء والتراكيب » شيئاً يذكر ، سوى ما ذكره المسعودي من أنه بحث فيه عن موضوع تأثير الشمس والقمر على حياة الإنسان والأرض[٢] . كما لا نعلم كذلك من أمر « كتاب الدعاوي » سوى ما ذكره المؤلف أيضاً من أنه بحث فيه عن مذهب العرب في النفوس وتنقل الأرواح[٣] . وأما كتاب « راحة الأرواح » فقد قال المسعودي عنه « هذا كتاب وسمناه بأخبار مسير الملوك والأرض وأخبار مقاتلتهم »[٤] .

وأما كتاب « القضايا والتجارب » فيظهر أنه كتاب في أسفار المسعودي وتجاربه ومشاهداته ، وذكر ما شاهده من غريب وعجيب من البقاع والحيوان والنبات والجماد[٥] وفي جملة بحوثه التي أشار إليها وصفه لمقابر الفراعنة « البرابي » وفي جملتها الأهرامات وضروب التوليدات في أنواع الحيوان والنبات ، من توليد الحيوانات من جنسين غريبين ومن تطعيم الغروس والأشجار والطعوم في المذاق[٦] ووصف فيه أيضاً أعياد

---

(١) مروج الذهب ١/ ٨٢ .
(٢) مروج الذهب ١/ ١١٧ .
(٣) مروج الذهب ٢/ ٦٩ .
(٤) مروج الذهب ١/ ٣٠٩ .
(٥) مروج الذهب ١/ ٣٠٧ .
(٦) مروج الذهب ١/ ٣٠٧ .

النصارى في بيت المقدس[1] .

ونجد في كتاب التنبيه والإشراف أسماء كتب لم يرد ذكرها في كتاب « مروج الذهب » لأنها لم تكن قد كتبت آنذاك ، وإنما ألّفت بعد ذلك[2] وهذه الكتب هي :

ـ فنون المعارف وما جرى في الدهور السوالف : ويظهر أنه موسوعة ضمت فنوناً متنوعة ، منها بحث عن الرياح الأربع ومهابها ، وبحث عن البرابي ، أي مقابر مصر العادية وعن الأهرامات ، وبحث عن اليمانية والنزارية وعن حجج كل فريق من الفريقين وبحث عن الساسانيين ، وآخر عن اليونانيين وما ورد في أنسابهم وأصولهم . وبحث عن الفلسفة وحدودها والأخبار عن كمية أجزائها « وما ذكره فوثاغورس وتاليس الملطي » والرواقيون وأفلاطون وأرسطو طاليس وغيرهم » وبحث عن أهل الكهف والموضع المنسوب إليهم بمدينة افسس . وعن الروم المتنصرة وأخبار المجامع النصرانية ومذاهبها وكنائسها وأديرتها وغير ذلك مما يتعلق بالنصرانية . وبحث عن سبب انتقال أجناس من الترك من الشرق إلى الغرب . وبحث عن ديار اليونان وتفرق الروم في البلاد . وبحث عن رسائل أرسطو طاليس إلى الاسكندر في السياسات الدينية والملوكية

---

(١) مروج الذهب ٣٠٨/١ ، و١٠٣/٢ .

(٢) التنبيه والإشراف ١ ، ٣ ، ١٨ ، ٧٢ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧ الخ . .

وغير ذلك ، وتنـازع الناس في تـواريخ الأنبيـاء ، وفي سرايـا الرسول ، وفي مدد من حكم من بني أمية ، وبحث عن دخول العـرب الأندلس والفتن فيهـا وفي أفريقيـا . وقـد اختتم هـذا الكتاب بخلافة المطيع . فالكتاب إذاً كما نرى هو كتاب عام ، إلّا أن التأريخ غالب عليه .

ـ كتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور : لم يشر المسعودي إلى محتوياته ، لذلك لا تعرف من أمر محتـوياتـه شيئاً .

ـ كتاب الاستذكار لما جرى في سالف الأعصار : وهو كتاب مبسط في التأريخ والجغرافيا .

ـ كتابا نظم الأعلام في أصول الأحكام والمسائل والعلل في المـذاهب والملل : وهمـا من كتب الآراء والنــظر والفلسفـة والجدل .

ـ كتاب خزائن الدين وسر العـالمين : ذكر فيـه المسعودي مناظراتـه مع ابن زكـريا دنخـا النصراني ، وبحث عن مـزدك ومذهبه والفرق بينه وبين مذهب ماني ، وبحث عن ابن ديصان ومرقيون ، وعن الثنـوية ، وعن رسـائل بـولس الأربع عشـر ، وبحث في البـاطنية أصحـاب التأويـل ، وآخر عن القـرامـطة وتعاليمهم .

ـ كتاب مقاتـل فرسـان العجم : ألفه المسعـودي معارضـة

لكتـاب مقاتـل فرسـان العرب لأبي عبيـدة معمر بن المثنى . تحدث فيه عن خبر « شهر براز » وسبب مقتله ومقتل غيره من فرسان الفرس وشجعانهم على طبقاتهم من الملوك .

ـ كتاب المسعوديات : وهو كتاب في الأخبار .

ـ كتـاب وصـل المجـالس : يشـارك الكتـاب السـابق في موضوعـاته وفي جملة بحـوثه أخبـار ولاة الأندلس وسيـاستهم وحروبهم مع من جاورهم من الجلالقة والجاسقس والوشكنس وقرمانيش وغوطس وغيرهم من الأفرنجة براً وبحراً .

كتـاب تقلب الدول وتغيـر الأراء والملل : هـو كتـاب في التأريخ والأخبار من جملة أبحاثه بحث عن إسماعيل وعن ابنه « أبي تمام معد بن إسماعيل » وتكوّن الدولة الفاطمية .

ـ كتاب نظم الجواهر وتدبير الممالك والعساكر : وهو أيضاً في الأخبار والتاريخ .

ونرى بعض المؤرخين يضيفون له كتباً أخرى مثل كتاب أخبار الخوارج ، وكتاب الأدعية ، ورسالة إلى ابن صفوة المصيصي وغيرها[١] .

---

(١) النجاسي : رجال ص ١٧٨ ، إثبات الوصية ص ٧ .

الفصل الثالث

المسعودي الرحالة والجغرافي

١ ـ المسعودي الرحالة :

كان المسعودي رحَّالة جوأبة قطع مسافات شاسعة من الأرضين . أما أسفاره ، فقد أشار إليها في مواضع من كتابيه مبيّناً غايته منها ، وهي الوقوف بالتجربة وبالعمل والمشاهدة على أحوال الأمم ، وكسب المعرفة والعلم : « مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة ، كقطعنا بلاد السند والزنج والصين والرانج ، وتقحمنا الشرق والغرب ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان ، وطوراً بالعراق ، وطوراً بالشام »[1] . فلم تكن أسفاره الواسعة هذه للتكسب والاتجار ، ولا للمجازفة والمغامرات ، بل كانت للبحث والتعلّم ومشاهدة أقطار العالم مشاهدة عيان . ولذا كانت رحلاته أكثر فائدة وجدوى، وأبقى أثراً من رحلات من سبقه من الرحالة الذين كانوا يسيحون للتجارة ، والذين كانوا يعوزهم الاستعداد الضروري للتأمل العلمي وإن لم تخل رحلاتهم

(١) المسعودي : مروج الذهب ١/٢ ، التنبيه والإشراف ص ٦ .

التجارية من طرائف مفيدة في بعض الأحيان[1] .

وقد لاقى المسعودي في أسفاره هذه مصاعب وأخطاراً ، ولا سيما في أسفاره البحرية حيث لعبت به وبأصحابه الرياح والأمواج ، وتحطمت السفن ، ولكنه لم يترك ركوب البحر ، بل عاوده مراراً . ركب مرة مع « جماعة من نواخذة السيرافيين ، وهم أرباب المراكب » البحر فهلك كثير من السيرافيين ومن كان معهم في مراكبهم ، أما مركبه ، فلم يصب بسوء ، ويقول : « وآخر مرة ركبت فيه في سنة أربع وثلثمائة من جزيرة قنبلو إلى مدينة عُمان ، وذلك في مركب أحمد وعبد الصمد أخوي عبد الرحيم بن جعفر السيرافي بمكان ، وفيه غرقا في مركبهما وجميع من كان معهما ، وكان ركوبي فيه أخيراً . . . ، وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة ، فلم أشاهد أهول من بحر السند »[2] . ووصف بحر الخزر وقد ركب فيه من ساحل جرجان إلى بلاد « طبرستان » كما ركب جملة بحيرات

---

(١) كتب سليمان السيرافي التاجر الذي رحل إلى بلاد الصين في القرن التاسع أخبار رحلته سنة ٨٥١ م ، ثم أكمل أحد أبناء وطنه أبو زيد كتاب هذه الرحلة سنة ٨٨٠ م وأضاف إليها معارف أخذها عن عرب زاروا الصين .
ـ غوستاف لوبون : حضارة العرب ٤٦٦ .

(٢) مروج الذهب ١/ ٨٩ .

(٣) مروج الذهب ١/ ٤٠ ـ ١٤٠ .

في بلاد آذربيجان وأرمينية[1] .

ومن عادته المستحسنة اهتمامه بوصف كل ما يؤثر فيه من أمر غريب . فوصف نوعاً من السمك عرف بـ « أفال » وهو من أسماك بحر السند ، كبير الحجم ، ضخم الجثة يخشاه أهل السفن ، وتحدث عن كيفية ظهوره على سطح الماء ، كما تحدث عن أسماك أخرى غريبة ، وعن أساطير أهل السفن وأقاويلهم عن البحار ، واستعمل ألفاظهم ومصطلحاتهم المستخدمة عندهم[2] . ووصف غريب عادات الأقوام التي شاهدها وتطرق إلى آرائها وعقائدها ، وكتبها ومعابدها وعلمائها ، ولذلك نجده يصف معابد أقوام وصفاً بديعاً شيقا ، ويرسم لنا صوراً شيقة عن كيفية حرق الموتى في الهند ، وفي جزيرة سيلان ، وقد شاهد الحرق بنفسه ، وعن كيفية تنصيب وتتويج الملوك ، كما وصف الآثار وصفاً لطيفاً وتحدث عن تأريخها كما سمعه وعرفه من العلماء أو الكتب أو من الناس ، وتطرق إلى ما عثر فيها وما وجده سرّاق الآثار ونبّاشو القبور القديمة في أجوافها من نفائس ، فرسم لوحات جميلة منها كالذي فعله عن أهرامات مصر وعن البرابي المنتشرة في أماكن كثيرة من مصر[3] . وأشار إلى كتب كانت متداولة بين أقباط

---

(١) مروج الذهب ١/ ٨٩ ، ١٣٠ .

(٢) مروج الذهب ١/ ٢١١ وما بعدها .

(٣) مروج الذهب ١/ ٢٩١ وما بعدها .

مصر عن تأريخ مصر القديم وعن آثارها ، وأديانهـا وآرائها ، ونقلُ منها ، كما تحدث عن الأقباط وعن عقيدتهم وعقيدة بقية نصارى مصر . ورسم صورة لاحتفال المصريين بليلة الغطاس ، من سنة ٣٣٠ للهجرة ، وكان إذ ذاك بمصر ، والحاكم عليها هو « الأخشيد محمد بن طغج »[1] . كما وصف مناظرات جـرت هناك في الفلسفة وفي الآراء والديانات ، رسم كل ذلك بأسلوب سهل بسيط جذاب مؤثر ، يقرب من أسلوب الكتّاب .

ومن مزاياه ذكره الأماكن التي نزل بها ، والأزمنة التي حلّ بها في تلك الأمكنة ، وتسميته أسمـاء من التقى بهم وزارهم في تلك المواضع من مسلمين ومن غيرهم . فتراه يشير إلى أحبار يهود بغداد فيقول : « وكان آخر من شاهدنا منهم ممن تقدم إلينا من مدينة السلام ، بعد الثلاثمائة إبراهيم اليهودي التستري ، وكـان أحـذق من تـأخـر منهم في النـظر ، وأحسنهم تصـرفـاً فيـه »[2] . ونراه يقـول « وأخبرني أبـو زيـد الحسن بن يـزيـد السيرافي بالبصرة ، وكان قد قطنها وانتقل عن سيراف ، وذلك في سنة ٣٠٣ هـ »[3] . ونراه يذكر أنه ركب « بحر الخزر » من ساحل جرجان ، إلى بلاد طبرستان . وأنه ركب بحيرة تقع بين

(١) التنبيه والإشراف ص ٩٩

(٢) مروج الذهب ١/١٢٢ .

(٣) مروج الذهب ١/٤٠ ، ١٠٤ .

مدينة « أرمينية » و « منارة » وهي المعروفة بـ « كنـودان »[1] . وحل بمدينة « جور » التي اشتهرت بماء الورد الجوري ، نسبة إلى وردهـا الجوري المشهـور . حتى عرف بـالعراق بـ « ورد جوري »[2]

وكان المسعودي بـ « اصطخر » سنة ٣٠٣ للهجرة . وقد زار فيها معبداً للمجوس ووصفه ، كما وصف كتاباً مصوراً في تأريخ ملوك فارس من آل ساسان فيه سبعة وعشرون رجلاً وامرأتان ، وقد صوّر الواحد منهم يوم مات شيخاً كان أو شاباً وحليته وتاجه ومخط لحيته وصورة وجهه وأنهم ملكوا الأرض أربعمائة سنة وثلاثاً وثلاثين سنة وشهراً وسبعة أيام ، وأنهم كانوا إذا مات ملك من ملوكهم صوّروه على هيئته ورفعوه إلى الخزائن كي لا يخفى على الحي منهم صفة الميت ، وصورة كل ملك كان في حرب قائماً ، وكل من كان في أمر جالساً وسيرة كل واحد في خواصه وعوامه وما حدث في ملكه من الكوائن العظيمة والأحداث الجليلة . وكان تأريخ هذا الكتاب أنه كتب مما وجد في خزائن ملوك فارس للنصف من جمادى الآخرة سنة ١١٣ ، ونقل لهشام بن عبد الملك بن مروان من الفارسية إلى العربية »[3] .

---

(١) مروج الذهب ١٤٩/١

(٢) التنبيه والإشراف ص ٩٢ وما بعدها .

(٣) التنبيه والإشراف ص ١٩١ .

وقد نقل هو أخبار أولئك الملوك من هذا الكتاب ، ووصف صورهم فيه . كما وصف أشياء أخرى رآها باصطخر .

وصارالمسعودي بأرض « اللار » الكبيرة من أرض الهند وذلك في سنتين ٣٠٣ و٣٠٤[١] . وبأرض « كنباية » من الهند سنة ٣٠٣[٢] ، وببلاد « صيمور » من اللار من مملكة « البلهرا » وذلك في سنة ٣٠٤ ، وزار جزيرة « سرنديب » أي جزيرة سيلان الحالية ، ولم يشر إلى وقت حلوله بها ، ولا بد أن يكون ذلك في خلال هذه المدة ، أي أثناء وجوده بالهند[٣] . وفي سنة ٣٠٤ ركب البحر من « جزيرة قنبلو » إلى مدينة عُمان . وجزيرة قنبلو ، هي من جزر بحر الزنج ، ومن الجزر الواقعة في مقابل الساحل الأفريقي ، وهي « مدغشقر » ولم يشر إلى كيفية وصوله إلى تلك الجزيرة ، وإلى الساحل الأفريقي المقابل لها[٤] .

ونجده بمدينة حلب والعواصم في أرض الشام في سنة ٣٠٩ هـ[٥] ، ثم بالعراق سنة ٣١٣ هـ ، إذ يذكر أنه كان بمدينة تكريت في هذه السنة ، وأن مناظرات كثيرة في أمور فلسفية وفي

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٩٦ .
(٢) التنبيه والإشراف ص ٦٩ .
(٣) المروج ١/٨٩ .
(٤) المروج ٢/٤٨٣ .
(٥) التنبيه ص ١٣٢ .

الثالوث وقعت له فيها بينه وبين « أبي زكرياء دنخا النصراني » وذلك في الكنيسة المعروفة « بالخضراء »[1] . ثم كان بمدينة « هيت » في سنة ٣١٥ ، وكان يريد السفر إلى بغداد ، ولكنه اضطر إلى البقاء فيها ، وذلك لمسير صاحب الاحساء إليها للاستيلاء عليها ، إلّا أنه لم يذكر بعد ذلك شيئاً عن سفره ولا عن مدة مكوثه بالعراق[2] .

ثم نراه بمدينة طبرية سنة ٣٢٤ ، ولكنه لم يذكر كيفية وصوله إليها ، ولا مدة بقائه بها[3] وكان بمصر سنة ٣٣٠ هـ[4] . وكان بمدينة انطاكية والثغر الشامي سنة ٣٣٢[5] ، وبدمشق سنة ٣٣٤ هـ[6] . والظاهر أنه كان يتنقل في خلال هذه المدة ما بين مصر وبلاد الشام . أما في سنة ٣٣٦ فكان بالفسطاط ، وكان بها في سنة ٣٤٤ أيضاً[7] . ويظهر أنه استقر بها حتى وافته المنية سنة ٣٤٥ أو ٣٤٦ هـ .

والمسعودي حين يتحدث عن رحلاته ، يتبع طريقة موضوعية

---

(١) التنبيه ص ٣٣٢ .
(٢) التنبيه ص ٢٩١ .
(٣) المروج ١/٢٩١ .
(٤) المروج ١/٨٣ .
(٥) التنبيه ١٦٥ .
(٦) التنبيه ص ٤٣ وما بعدها ، ٣٤٨ .
(٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٧ .

إقليمية ، فيقسم دراساته إلى موضوعات مستقلة ، ويتحدث كل موضوع عن إقلم معيّن ، فلا يتبع المسعودي الطريقة الزمنية ولا يهتم بتتابع أخبار رحلاته ، أو الربط بينها .

وقد أشاد ابن خلدون برحلات المسعودي ، برغم أنه عاش بعده بأربعمائة سنة تقريباً ، فقال عن المسعودي : « فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال والأعصار ، فهو أس للمؤرخ تنبني عليه أكثر مقصاده وتتبين به أخباره ، وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعل المسعودي في كتاب مروج الذهب ، شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهدة في عصر الثلاثين والثلاثمائة غرباً وشرقاً ، وذكر نحلهم وعوائدهم ، ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول ، وفرق شعوب العرب والعجم ، فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه واصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه »[1] .

وقد تأثر ابن حوقل والبيروني برحلات المسعودي ونهجا منهجه في رحلاته وتدوين أخبارها ، ولكن المسعودي تفوق عليهما ، فقد كانت معلوماته أكثر دقة . ويعتز المسعودي دائماً برحلاته وبالجهود التي بذلها خلالها فهو يقول : « . . . تقاذف الأسفار ، وقطع الأقفار ، تارة على متن البحر ، وتارة على ظهر البر ، مستعملين بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواص

---

(١) مروج الذهب ١ / ١٠ ـ ١١ .

الأقاليم بالمعاينة ، كقطعنا بلاد السند والزنج ، والصنف والصين ، والزابج ، وتقحمنا الشرق والغرب ، فتارة بأقصى خراسان وتارة بوسائط أرمينية وأذربيجان والران والبيلقان ، وطوراً بالعراق ، وطوراً بالشام ، فسيرى في الآفاق ، سرى الشس في الإشراق ، كما قال بعضهم[1] .

تيمّم أقطار البلاد فتارة لدى
شرقها الأقصى وطوراً إلى الغرب
سرى الشمس لا ينفك تقذفه النوى
إلى أفق ناء يقصر بالركب

٢ ـ المسعودي الجغرافي :

في القرن الرابع للهجري نجد تقدماً في البحث الجغرافي . وكان البحث في أحوال الأقاليم وليد النهضة العلمية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري . وأول ما كان من ذلك كتب الكندي حوالي عام ٢٠٠ هـ/ ٨١٣ م . وكان الكندي في مقدمة حملة العلوم اليونانية بين العرب ، ثم ظهر بعد ذلك حوالي ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة الذي يقول فيه المسعودي أنه على الرغم مما فيه من العيوب ، هو أحسن كتاب في موضوعه . لذا يمكن اعتبار اليعقوبي ثم المسعودي هما أول من وضع أسس المدرسة العربية في الدراسات الجغرافية .

---

(١) مروج الذهب ١/ ٧٣ ، ٧٥ ومواضع اخرى .

وفي كتب المسعودي دراسات جغرافية عديدة ، وقد ورد بعضها في كتب من سبقوه ، إلّا أنه ينفرد عنهم بمزية لا يشاركه فيها من سبقه من هؤلاء الجغرافيين العرب ، إذ تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة للعالم الإسلامي في عصره ، كما تميز عنهم بالدقة والعمق . والمسعودي يطعم دراساته الجغرافية بجوانب تاريخية واجتماعية ودينية ، رابطاً بين الزمان والمكان . كما اهتم المسعودي بأثر البيئة الطبيعية في صور وأخلاق البشر فقال :

« والأخلاق والصور تناسب البلد ، وتحاذيه وتقاربه ، وتوافقه وتضاهيه . وكل بلد اعتدل هواؤه ، وخفّ ماؤه ، ولطف غذاؤه ، كانت صور أهله ، وخلائقهم تناسب البلد وتحاذيه ، وتشاكل ما عليه أركانه ، وما أسس عليه بنيانه . وكل بلد يزول عن الاعتدال انتسب أهله إلى سوء الحال » .

اهتم المسعودي بالدراسات الجغرافية اهتماماً كبيراً . فقد وصف « الأرض والبحار ومبادىء الأنهار والجبال والأقاليم السبعة وما والاها من الكواكب وترتيب الأفلاك وغير ذلك » وكان جل اعتماده في هذا الفصل على « جلس المنجّم » صاحب كتاب « الزيج في النجوم » وذلك في موضوع مقدار الدرجة الواحدة من الأرض ، وعلى « كتاب جغرافيا » لبطليموس الجغرافي اليوناني المشهور ، وعلى كتابه الآخر « كتاب

المجسطي »[1] . وقد وصف المسعودي « كتاب جغرافيا » وصفاً يدل على أنه نظر في نسخة كانت ذات صور « خرائط » للجبال والبحار والأرضين ، وأنها كانت ملوّنة بألوان مختلفة تمثل الشيء الذي تمثله . وقد ذكر أنها كانت مكتوبة « إلاّ أن أسماءها في هذا الكتاب باليونانية فتعذر فهمها »[2] ولذلك لم يتمكن من فهمها والوقوف على أسماء المواضع في تلك الصور . ولكنه نقل نقولاً مطولة من النص ، دون أن يشير إلى كيفية نقله من النص . ولعل أحداً كان يقرأ النص اليوناني ، ثم يترجمه له ، أمّا الصور « الخرائط » فلربما كان خطها صعب القراءة ، أو أن أسماء المواضع كانت مكتوبة على حسب النطق اليوناني ، ولذلك تعذر على المترجم النطق بها والتعرف عليها . ونجد المسعودي ينقل عن جغرافيا بطليموس في مواضع متعددة من كتابيه . ويجوز أن يكون المسعودي قد نظر في هذه النسخة اليونانية وعاينها ليتفرج على ما فيها فوصفها على النحو الوارد في مروج الذهب ، أما نقوله فكانت من ترجمة عربية كانت لديه . وقد كان هذا الكتاب قد نقل إلى العربية ، فقد ذكر ابن النديم أن هذا الكتاب هو في ثمان مقالات في المعمور وصفة الأرض ، وقد نقل للكندي نقلاً رديئاً ، ثم نقله

---

(١) مروج الذهب ١ /٧٣ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ٣٨٩ .

ثابت إلى العربية نقلاً جيداً ، ويوجد بالسريانية[١] .

وأخذ المسعودي معارفه في الجغرافية وفي الهيئة والفلك من كتب بطليموس الأخرى ، مثل كتاب المجسطي[٢] ، وكتاب الهيئة[٣] ، وكتاب دعاه « الأربع مقالات » و « كتاب الأنوار »[٤] ومن كتب أخرى ذكرها ابن النديم في كتابه الفهرست[٥] .

وكتاب المجسطي ، هو من كتب بطليموس الرئيسية ، وقد قال عنه ابن النديم ، أنه في ثلاث عشرة مقالة ، « وأول من عني بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحي بن خالد بن برمك . ففسرّه له جماعة ، فلم يتقنوه ، ولم يرض ذلك » ، ثم اشتغل بنقله عدد من المترجمين ذكرهم . وقد جمع بطليموس في كتابه هذا رأي المتقدمين عليه ، وذكر المسعودي منهم : « مارينوس وأبرخس وطيمستانس » وانتقد آراءهم وصححها حسب ما تراءى له ذلك في تلك الأيام[٦] .

---

(١) مروج ١/٧٥ ، التنبيه ص ١١ .
(٢) التنبيه والإشراف ١١ .
(٣) التنبيه والإشراف ١٦ .
(٤) نفسه ص ٦١ .
(٥) ابن النديم : الفهرست ٣٨٨ .
(٦) التنبيه والإشراف ص ٢٧ .
(٧) نفسه ص ٣٠ .

ويظهر من كتاب التنبيه ، أن المسعودي كان قد استعان بكتاب آخر في « الجغرافيا » ألّفه مارينوس الصوري الذي عاش قبل بطليموس[1] ، وهو من الجغرافيين الذين أضافوا معارف جديدة على الجغرافية في ذلك الوقت . فأضاف إصلاحات وتحسينات على آراء هيبارخس المتوفي في حوالي ١٢٥ قبل الميلاد . وكان هيبارخس الذي يسميه المسعودي بـ « ابرخس »[1] ، أحد واضعي أسس علم الهيئة ، وقياس الدرجات . وقد صنع جريدة بأسماء ٨٥٠ نجماً من النجوم الثابتة في السماء . وقد زاد بطليموس هذا العدد فأوصله إلى ١٠٢٢ نجماً ، وأصلح نظرية هيبارخس في كيفية تثبيت المواضع على الخرائط .

وقد نظر المسعودي في جغرافية مارينوس ، وكان مارينوس قد رسم صوراً لقطع الأرض وللأرض ، فوصفها بقوله : ورأيت هذه الأقاليم مصورة في غير كتاب بأنواع الأصباغ . وأحسن ما رأيت من ذلك في كتاب جغرافيا لمارينوس وتفسير جغرافيا قطع الأرض »[2] وذكر بالمناسبة أن المأمون أمر فعملت له صورة للأرض فقال : « وفي الصورة المأمونية التي عملت للمأمون ، اجتمع على صنعتها عدة من حكماء أهل عصره ، صور فيها

---

(١) نفسه ص ٣٠ .

(٢) نفسه ص ٣٠ .

العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ، ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك ، وهي أحسن ما تقدمها من جغرافيا » . كما ذكر أن بطليموس قد نظر في كتاب « جغرافيا في صورة الأرض وشكلها وبحارها وأنهارها وعامرها وغامرها لمارينوس ، وأنكر عليه أشياء ذكرها »[١] .

واستعان المسعودي في موضوع البحار بالكندي الفيلسوف المعروف وبتلميذه أحمد بن الطيب ، أبو العباس أحمد بن مروان السرخسي[٢] . ولم يشر إلى الكتاب الذي أخذ منه في مروج الذهب ، غير أنه ذكره في « التنبيه » فقال : « له رسالة في البحار والمد والجزر وغير ذلك »[٣] ، ولتلميذه « أحمد بن الطيب رسالة في منافع البحار والجبال والأنهار »[٤] . وقد أثنى المسعودي على أحمد بن الطيب السرخسي في « التنبيه » وأثنى على كتابه ، فقال عنه : « وقد صنَّف أحمد بن الطيب السرخسي صاحب يعقوب بن إسحق الكندي ، كتاباً حسناً في المسالك والممالك والبحار والأنهار وأخبار البلدان وغيرها »[٥] . ويظهر أنه يريد به الكتاب السابق . وقد ذكر هذا

---

(١) نفسه ص ١١٠ .
(٢) المروج ١/٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٤ .
(٣) التنبيه والإشراف ٢٤٦ .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) نفسه ص ٦٥ .

الكتاب في « مروج الذهب » فقال عنه : « وقد ذكر أحمد بن الطيب في رسالته في البحار والمياه والجبال عن الكندي . . . »[1] .

وقد أشار المسعودي في كتاب التنبيه إلى كتاب آخر من كتب الكندي ، دعاه « كتاب في رسم المعمور من الأرض » نقل منه بعض النقول[2] .

وتطرق في كتابه « التنبيه » إلى قسمة الأرض . فذكر أن الروم تقسم الأرض إلى ثلاثة أجزاء هي : أورفا ، ولوبية وآسية . ويقصد بأورفا : أوروبة ، وبـ « لوبية » أفريقية . وجماع هذه الأجزاء تكون ما نسميه بـ « العالم القديم »[3] .

ووقف المسعودي على مؤلفات أخرى في الجغرافي استفاد منها وأشار إلى أسماء مؤلفيها وهم : « أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني » ألّف كتاباً في صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم ، وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الظريفة . و« أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة » مؤلف كتاب « المسالك والممالك » و« محمد بن أحمد بن المنجم بن أبي

(١) المروج ١/١٠٤ .
(٢) التنبيه ص ٢٤ .
(٣) التنبيه ص ٢٨ .

العون » الكاتب صاحب « كتاب النواحي والآفاق والأخبار عن البلدان »[1] .

وأورد المسعودي لأبي المعشر كتاباً دعاه « المدخل الكبير إلى علوم البحر » وقد نقل عنه في موضوع البحار[2] . وأورد اسم « محمد بن جابر النسائي » في جملة من استعان بكتبهم في الكتابة عن البحار . وكان النسائي من الجماعة التي ألّفت في الزيجات[3] .

ونالت بلاد الصين اهتماماً كبيراً من المسعودي ، وتعتبر دراساته حول هذه البلاد أوضح وأوفى ممن سبقه من الرحالة . وقد مزج المسعودي بين وصف بلاد الصين وتاريخها . فقد تحدث عن ملوكهم وشعوبهم وعقد دراسة مقارنة بينهم وبين القبائل العربية ، كما كان من أوائل الرحالة والجغرافيين الذين اهتموا بالحديث عن بلاد الحبشة والسودان والهند ، وقد وصف هذه البلاد وأهلها وعاداتهم وممالكهم القديمة وملوكها وحروبها ونقل لنا صورة مفصلة عن الزنج وعاداتهم ولباسهم وحليهم .

ونالت الأقطار العربية اهتماماً كبيراً أيضاً من المسعودي فقد درس هذه الأقطار دراسة جغرافية مفصلة . فتحدث عن الشام

---

(١) التنبيه ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) مروج الذهب ١ /١٢٤ .

(٣) مروج الذهب ١ /٩٧ .

ومصر واليمن والحجاز والمغرب والعراق ، وأشار إلى أثر البيئة الطبيعية في حياة هذه الأقطار الاجتماعيـة والاقتصاديـة ، كما اهتم بالأقطار غير العربية مثل خـراسان وفـارس ، وخوزستـان والهند والصين وبلاد الروم . كما أمـدنا بمعلومـات وافية عن الأديان في العالم كما لمسها وشاهدها خلال رحلاته العـديدة فتحدث عن الوثنية والهياكل وبيوت النـار والأصنام ، وعقـائد الهند والصين ، وعبادة الكـواكب ، وعقيدة العـالم في البيت الحرام ، ودين الصائبة ، وعبادة النار ، كما تحدث عن معابد وهياكل اليونان والرومان والصقالبة والصينيين والفرس .

الفصل الرابع

الفصل الرابع

المسعودي المؤرخ

يعتبر المسعودي في مقدمة المؤرخين العرب المسلمين الذين نهجوا نهجاً ميزهم عن غيرهم . وقد أنشأ مدرسة في التأريخ احتذاها كثيرون ممن عاشوا بعده وخاصة ابن خلدون . وكانت لهذه المدرسة مناهجها في الكتابة التاريخية ، وقد طبق المسعودي هذه المناهج في كتابة تاريخه سواء تلك التي استخدمها في اختيار مادته أم تلك التي استخدمها في تنظيم موضوعاته .

أولاً ـ منهج المسعودي في اختيار مادة تاريخه :

وضع المسعودي لنفسه برنامجاً محدداً وخطة عمل دقيقة سار عليها وتقوم على ما يلي :

١ ـ الجمع بين التاريخ والجغرافية : إن المسعودي هو من أوائل المسلمين الذين جمعوا بين التاريخ والجغرافية وعلم الهيئة ، ووفق بينها باعتبار أن للفلك وللأرض علاقة كبيرة بحياة الإنسان وبتطوره . بل ربما كان ، هو أول من قام بهذا الجمع

عندهم . فلا نعلم أحداً سبقه في هذا الباب[1] لقد سافر اليعقوبي أسفاراً طويلة كثيرة تشبه الأسفار التي قام بها المسعودي وسأل عدداً كبيراً من الناس من مختلف الطبقات عن الآراء والديانات والمسافات والأبعاد وما شاكل ذلك[2] . ولكنه لم يتأثر كما تأثر المسعودي بالمشاهد الغريبة وبالآثار وبالغرائب والنوادر ، ولم يلتفت إلى أثر المحيط في الناس ، وإلى العوامل التي تؤثر في الإنسان والتاريخ . ولم يجمع بين الجغرافية والفلك والتاريخ كما فعل المسعودي الذي جعل الجغرافية والفلك مقدمة لفهم التاريخ . ففي المقدمات التي كتبها المسعودي في كتابه التنبيه عن قوى الأرض وفعلها في الأبدان وفي طبائع الأمم والبشر ، وعن أثر الأقاليم السبعة والأجرام السماوية والفصول فيها ، نجد تعليلاً كيساً وملاحظات جديرة بالتقدير عن أمور لم تدر بخلد من قبله من المؤرخين . أثرت فيه فكونت له رأياً خاصاً في تفسير العوامل التي تدفع الإنسان على العمل وفي ظهور التاريخ . ولعل اهتمام المسعودي بأمور جغرافية ، وقيامه بأسفار طويلة بعيدة متعددة ، هي التي حملت بعض المستشرقين على إدخاله في عداد الجغرافيين وأصحاب السياحات . وإعراض بعض منهم عن إدخاله في قائمة المؤرخين ، كالذي فعله « مارغليوت » فقد أهمله اهمالاً تاماً

(١) فرانز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ص ٥١

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢ ـ ٣ .

في كتابه : « دراسات عن المؤرخين العرب »[1] ، مع أنه أدخل اليعقوبي في عدادهم ، وليس المسعودي على حد علم العلماء أقل منزلة منه في التاريخ .

٢ ـ **عدم الانسياق في تصديق الأخبار دون تحليلها** : كان المسعودي عميقاً في العلم والمعرفة ، يرجع إلى المصادر الأصلية ليأخذ منها . وإذا كان تعرض لأمور من قبيل الخرافات فإنه يذكرها ويسردها لا لأنه يؤمن بها ، بل لأنها شائعة بين الناس فهو يذكرها لهذا الشيوع فقط[2] . وقد كان المسعودي من أولئك النفر الذين كانوا يسخرون من الخرافات ويرون أنها مجافية للمنطق والعقل ، فكان من الأفراد الذين ارتقوا فوق مستوى التفكير لأكثر أهل زمانه في هذه الأمور ، وهو يتعرض لكتاب عبيد بن شرية المتداول بين الناس بكثرة ، فيقول عنه وعن أخباره : « إن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة ، نظمها من تقرب للملوك براويتها ، وصال على أهل عصره

---

(١) مرغليوت : دراسات عن المؤرخين العرب (تعريب د. حسين نصار ـ دار الثقافة بيروت) .

(٢) يراجع رأي المسعودي في كيفية حدوث المد والجزر حيث ناقش الخرافات الواردة في ذلك ، ثم ختم المناقشة بقوله : « وإن لم يصح ما ذكرنا فقد وصفنا آنفاً ما قال الناس في ذلك ليعلم من قرأ هذا الكتاب ، أنّا قد اجتهدنا فيما أوردناه في هذا الكتاب وغيره من كتبنا ولم يغرب عنا فهم ما قاله الناس في سائر ما ذكرنا » .
ـ مروج الذهب ١٠٢/١ وما بعدها .

بحفظها والمذاكرة لها ، وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية وسبيل تأليفها مما ذكرنا ، مثل كتاب هزار أفسانة ، وتفسير ذلك من الفارسية إلى العربية ألف خرافة ، والخرافة بالفارسية يقال لها أفسانة »[1] وتراه يتعرض لخرافات وأساطير أهل البحر فيسخّفها ويبين علة شيوعها بينهم . ومع ذلك لم يكن في إمكان المسعودي أن يجرد نفسه من عقلية زمانه تمام التجرد . فذلك أمر غير ممكن ، فإن الرجل كان ابن زمانه ، وأذكياء زمانهم وعباقرة وقتهم ، وإن ارتفعوا فوق زمانهم ، فإن جاذبية عقلية أرضهم ومحيطهم لا تتركهم أحراراً تماماً متجردين من كل مؤثر وتأثير .

ومن الطريف أن المسعودي كما كان قاسياً في نقده لبعض من سبقه من المؤلفين مثل الجاحظ وسنان بن قرة الحراني ، حيث اتهمهما بعدم الدقة فيما أورداه من أخبار ، فقد تعرض بدوره لهجوم من ابن خلدون الذي انتقد ما ذكره عن قصة الاسكندر وما كان من صد دواب البحر له عن بناء الاسكندرية ، واتخاذ الاسكندر تابوتاً خشبياً يحتوي على صندوق من زجاج ليعاين صور هذه الدواب في قاع البحر حتى يصوغ لها من التماثيل المعدنية ما تجعلها تخافها وتفر من أمامها[2] . كما انتقد ابن خلدون المسعودي في حديثه عن مدينة النحاس التي

---

(١) مروج الذهب ٢/١٥٣

(٢) نفسه ١/٣٧٠ .

صادفها موسى بن نصير في فتوحه المغرب والذي ذكر أنها بلدة موصدة الأبواب ، وأن الصاعد على أسوارها كان يلقي بنفسه من فوقها كما عاب عليه ما تحدث به عن تمثال الزرزور في روما وتجمع الزرازير إليه في يوم معلوم من السنة حاملة الزيتون ومنها يتخذ أهل رومة زيتهم .

٣ ـ الكتابة عن تجربة وعلم ودراية : كان من رأي المسعودي ألاّ يكتب المرء عن شيء إلاّ أن يكون قد خبره بنفسه وعلم علمه تماماً . وإلاّ كان حاطب ليل ، ولهذا السبب طاف الآفاق كما يقول ليراها بنفسه وليختبرها بشخصه ، فإذا كتب عنها ، كتب عن تجربة وعلم ودراية ، فهو من أولئك الذين اتخذوا الأسفار منبعاً يمد صاحبها بالعلم العملي والمعرفة الصحيحة الواقعية . وقد طبق كلامه هذا تطبيقاً عملياً ، فجاء بمعرفة جديدة لم يأخذها من الكتب ، وإنما أخذها من أسفاره وملاحظاته ومن تفتح ذهنه وعينيه وأذنيه ، وهو من هذه الناحية رجل قريب من عقلية هذا الزمان . تراه يقدر الجاحظ ويحترمه ، ويحترم مقامه في دولة الأدب ، ولكنه يهاجمه ويحمل عليه بعنف لتأليفه كتاباً في موضوع كان من الواجب عليه في نظره ألاّ يؤلف فيه ، لأنه يحتاج إلى خبرة وإلى رؤية ومشاهدة وكأنه كان يريد منه أن يقوم بمثل ما قام به هو ، حتى يسمح لنفسه بتأليف ذلك الكتاب « وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ ، أن نهر مهران الذي هو نهر السند من النيل ، ويستدل

على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل . وذكر في كتابه المترجم بكتاب الأمصار ، وهو كتاب في غاية الغثاثة ، لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا يعرف المسالك والأمصار ، وإنما كان حاطب ليل ، ينقل من كتب الورّاقين ، أو لم يعلم أن نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالي بلاد السند من أرض القنوج إلى مملكة يورره وأرض قشمير والقفندار والطافر حتى ينتهي إلى بلاد المولتان ، ومن هناك يسمى مهران . . . »[1] .

ونجده ينتقد مؤلفين آخرين لنفس السبب ، أو لأنهم كانوا مجرد نقله . ورجل هذا شأنه وهذا رأيه ، لا يمكن أن يكون إنساناً ناقلاً لا غير ، أو مجرد مخبر صفحات غير عميق في تفكيره وفي علمه .

ورأى المسعودي ألاّ يؤلف الإنسان إلاّ في حدود اختصاصه وفي دائرة علمه لذلك نراه يحمل على سنان بن ثابت بن قرة ، حين انتحل ما ليس من صناعته فقد ألّف سنان « كتاباً جعله رسالة إلى بعض اخوانه من الكتّاب ، واستفتحه بجوامع من الكلِم في أخلاق النفس وأقسامها من الناطقة والغضبية والشهوانية ، وذكر لمعاً من السياسات المدنية ، وهو عشر مقالات ، ولمعاً مما يجب على الملوك والوزراء ، ثم يخرج

---

(١) نفسه ١/٨١ وما بعدها .

إلى أخبار يزعم أنها صحّتْ عنده ولم يشاهدها ، ووصل ذلك بأخبار المعتضد بالله ، وذكر صحبته له وأيامه السالفة . ثم ترقى إلى خليفة خليفة في التصنيف ، مضادة لرسم الأخبار والتواريخ ، وخروجاً عن جملة أهل التأليف ، وهو وإن أحسن فيه ، ولم يخرجه عن معانيه ، فإنما عيبه أنه خرج عن مركز صناعته ، وتكلف ما ليس من مهنته ، ولو أقبل على الذي انفرد به من علم أقليدس ، والمعظمات والمجسطي والمدورات ولو استفتح بسقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس ، فأخبر عن الأشياء الفلكية والأثار العلوية ، والمزاجات الطبيعية ، والصنائع المركبات ، ومعرفة الطبيعيات : من الالهيات والجواهر والهيئات ، ومقادير الأشكال وغير ذلك من أنواع الفلسفة ، لكان قد سلم مما تكلّفه ، وأتى بما هو أليق بصنعته ، ولكن العارف بقدره يعود ، والعالم بمواضع الخلة مفقود ، وقد قال عبد الله بن المقّفع : من وضع كتاباً فقد استهدف ، فإن أجاد فقد استشرف ، وإن أساء فقد استقذف »[1] .

ونرى المسعودي يحقق ويدقق ويسأل الناس ، عما ورد في كتاب الحيوان للجاحظ من « أن الكركدن يحمل في بطن أمه سبع سنين ، وأنه يخرج من بطن أمه ، فيرعى ثم يدخل رأسه في بطنها »[2] . فيقول : « فبعثني هذا الوصف على مسألة من

(١) مروج ١ /٧ وما بعدها .

(٢) مروج ١ /١٤٦ .

سلك تلك الديار من أهل سيراف وعُمان ومن رأيت بأرض الهند من التجار ، فكل يتعجب من قوله إذا أخبرته بما عندي من هذا وسألته عنه ، ويخبرونني أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس ، ولست أدري كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ : أمن كتاب نقلها أو مخبر أخبره بها »[1] . وفي كتابي المسعودي أمثلة أخرى عديدة من هذا النوع ، تدل على أنه كان يستفسر ويسأل ويبحث حين وقوفه على خبر غريب ، وعلى قضية يرى أنها خلاف المألوف ، حتى يتأكد ويطمئن وكي لا يكون سطحياً يأخذ الأقوال أو ينقل من الأوراق دون فحص ولا تمحيص .

ثم نرى المسعودي يفحص ويتساءل ويراجع العلماء وأصحاب الخبرة والدراية عن كل شيء يشك فيه ، فلما قيل له أن بحر الخزر يتصل ببحر « مانطس » لم يصدق ذلك ولم يدخل هذا الخبر في عقله ، ولذلك ذهب إلى تلك الأرضين . وركب بحر الخزر ، وأخذ يسأل الناس وهو يقول عن ذلك : « ولم أترك من شاهدت في البحار ممن له أدب وفهم ومن لا فهم عنده من أهل المراكب إلّا سألته عن ذلك ، وكلٌ يخبر أن لا طريق له إليها من بحر الخزر »[2] وهو دقيق في كثير من الأوقات ، لا يذكر رأياً إلّا ويعلق عليه ويناقشه ، ففي كثير من الآراء الفلسفية أو الجغرافية أو أمثالها ، نراه يناقش ويحاسب ويصحح مما يدل

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) مروج ١/١٠٣ وما بعدها .

على أنه ليس مجرد ناقل . ففي بحث رصد الشمس ، نراه ينتقد من استدل برأي بطليموس المذكور في المجسطي ويحاسبهم بذكر التقاويم والسنين ليصحح قولهم وليفنده ، ليثبت أن ما ذكروه عن المجسطي غير صحيح ، وأن ما حكاه هو عن ذلك الكتاب هو الصحيح[1] . وهناك ملاحظات أخرى أبداها في كتابيه من هذا القبيل .

٤ ـ الانتباه والالتفات إلى الأشياء الغير مألوفة : كان في طبع المسعودي ، الانتباه والالتفات إلى كل شيء غريب غير مألوف ، يستلفت النظر . وقد يكون هذا الطبع هو في جملة العوامل التي دفعت به إلى التوغل في الأسفار الشاقة البعيدة وعلى ركوب البحار غير ملتفت إلى مهالكها وأخطارها . لذلك لم يحو كل همه وانتباهه بأخذ العلم من الأفواه واقتباسه من الكتب وحصر حدود التاريخ بالحوادث والأيام وأخبار الخلفاء والملوك والرسل والأنبياء والأمم على طريقه علماء التاريخ في ذلك بل وسّع حدوده ، بأن ضم إليه أخبار العامة وما لاحظه عن « السوقة » من طباع وخصال ، ووصف ما رآه من مبان وآثار ، وما تحادث به مع الناس في سائر الأمور . وبذلك صيّر التاريخ تاريخاً عاماً يتحدث عن السياسة وعن الحروب وعن الناس وأثرهم في تطور المجتمع وفي تطور زمانهم ، وعن النواحي

(١) التنبيه والإشراف ١١٢ وما بعدها .

الاجتماعية والثقافية . فهو مؤرخ حي ، يمر على الأبنية العادية فيكتب عنها ويصفها ويبسط القول فيها . فنحن نرى في كتابه مروج الذهب ، وصفاً للآثار التي رآها ، ولمعاً من تاريخها كما عرفه أو سمعه ، فيه صفحات عن البرابي ، أي قبور قدماء المصريين وعن الاهرامات ، وصفحات عن قصص لصوص المقابر ونبّاشيها لاستخراج ما دفن فيها من نفائس وكنوز ، ووصفاً لأعياد الأقوام والطوائف التي رآها . كل ذلك بأسلوب سهل شيق . أما المؤرخون أهل الجادة ، المتمسكون بالتاريخ بحدوده المرسومة كالطبري مثلاً ، فإننا لا نجد في تواريخهم هذه الصور الحية ، ولا هذا النوع من الكلام . إنها في نظرهم أمور بعيدة عن التاريخ لا يليق بالمؤرخ الحصيف إدخالها في تاريخه ، فهي من أعمال الكتاب . لذا نجد تاريخ الطبري كتاباً صارماً فيه خلق علماء تلك الأيام : متانة في الأسلوب ، وأسانيد ، وروايات مستقلة أو متداخلة حسب الموقف لا مكان فيه لوصف الآثار ولا لوصف عادات الناس وحياتهم اليومية . لقد عاش الطبري أمداً في مصر ، درس فيها وحادث علماءها وكتب عن تاريخها القديم كما جاء عند أهل الأخبار ، ولكنه لم يتكلم عن الاهرامات ولم يشر إلى آثار الفراعنة ، ولا عن أي أثر آخر من الآثار الموجودة في في مصر ، مع أنه مؤرخ ومن واجبه البحث عن هذه الآثار التي تخص ذلك التاريخ . لقد دخل مصر وخرج منها وكأنه لم يذهب إليها . وهكذا كان شأن العراق وشأن

أي مكان آخر نزل فيه الطبري .

٥ ـ **الربط بين الأحداث التاريخية** : تميز المسعودي عن غيره من المؤرخين بما نسميه اليوم بالعقلية التاريخية والحاسية التاريخية . وقد ظهرت عقلية المسعودي التاريخية واضحة في كتابيه مروج الذهب والتنبيه والإشراف ، فقد اهتم بالتطور الزمني وربط بين الأحداث التاريخية ، وعقد كثيراً من المقارنات ، فهو مثلاً يشبه الدولة العباسية في ضعفها وانقسامها بدولة الاسكندر بعد وفاته . أما الحاسية التاريخية فقد اكتسبها المسعودي من رحلاته العديدة إلى بلاد تختلف تماماً في معالمها وحضاراتها . ولما كان الهدف من هذه الرحلات البحث والاستقصاء ، فقد اهتم بأن ينظر إلى كل ما يراه بعين النقد والاختبار والتحليل ، موازناً بين مشاهداته وبين ما سمعه من قبل أو قرأه في الكتب .

٦ ـ **الاتصاف بالحياد التاريخي** : اتصف المسعودي بالحياد التاريخي ، حيث لا نجد في كتبه صورة تملق أو انحياز أو تعصب . فقد وضع جميع الشخصيات التاريخية في ميزان النقد التاريخي وحكم على تاريخهم حكماً عادلاً محايداً . ونحن نراه أثناء حديثه عن تاريخ مصر في عصر الأخشيديين يبتعد تماماً عن تملق الأمراء الأخشيديين ، حيث لم يهتم بالحديث عن الأخشيد أو عن كافور ، بل ركز الحديث عن مصر وتاريخها وشعبها وحياتها الاجتماعية ونيلها وآثارها وعجائبها رغم أنه

قضى الفترة الأخيرة من حياته في مصر أثناء حكم الدولة الأخشيدية .

ثانياً ـ منهج المسعودي في تنظيم مادته التاريخية :

التزم المسعودي في تنظيم مادته التاريخية المبدأين التاليين :

١ ـ عدم الأخذ بمنهج الإسناد كضمان لصحة الخبر : اتبع المؤرخون الأوائل منهجاً دقيقاً وصارماً للتأكد من صحة الخبر وصدقه إذ استخدموا منهج الإسناد ، ونقصد به سلسلة الرواة الذين يمكن أن نتتبع آثار الرواية عن طريقهم إلى شاهد العيان الأصلي . وقد تفرعت هذه الطريقة من دراسة الحديث . وقد استمرت هذه الطريقة عند بعض مؤرخي القرن الرابع الهجري كالطبري مثلاً . وربما يعود سبب ذلك إلى أنه كان من الفقهاء قبل أن يكون مؤرخاً . وكان لهذا المنهج الفضل في وصول أدق المعلومات التاريخية عن العصور الإسلامية . ولكن بعد تقادم الزمن وتطور الأحداث السياسية في العالم العربي والإسلامي وظهور الأحزاب السياسية واختلاف وجهة نظرهم حول العديد من القضايا السياسية والدينية أصبح تيار الشك في صحة العديد من الأحاديث والحوادث المروية ، ومن هنا بدأت تظهر لهذا المنهج بعض العيوب . فتعدد الرواة الذين اعتمد المؤرخ عليهم ، وبعضهم كان من الثقات ، فيما اشتهر بعضهم الآخر بالاختلاق أو المبالغة أو عدم الدقة جعل التأكد من صحة

وسلامة الرواية بصورة قاطعة حتى بعد نقدها وتمحيصها أمراً شاقاً . وكثيراً ما كانت تتناقض الروايات وتختلف في التفاصيل والأسلوب ، وغالباً ما كان المؤرخ يعدد الروايات دون أن يرجح إحداها أو يعقد دراسة مقارنة بينها . لهذا حاد المسعودي عن هذه الطريقة التقليدية واكتفى بأن يذكر في مقدمة كتبه من اعتمد عليهم من الرواة أو المصادر التاريخية دون أن يهتم بأن يسند أخباره . وأضاف إلى ذلك شيئاً جديداً ميّزه عن أسلافه حين كتب دراسة نقدية مقارنة لمصادره وهي عين الطريقة التي يتبعها المؤرخون المحدثون حينما يخصصون مقدمة لدراساتهم يتحدثون فيها عن مصادرهم وينقدونها ، ويقارنون بينها ، وللمسعودي فضل السبق إلى ذلك .

وقد أفادنا المسعودي فائدة كبيرة بإشارته إلى من ألّف في التأريخ قبله ، في مقدمته لكتابه مروج الذهب ، فجاء بقائمة طويلة حوت أسماءهم ، فعرفنا بذلك بأسماء من ألّف في هذا الموضوع قبله . وقد علق أحياناً على المؤلف وعلى مكانته في العلم ، وعلى مؤلفه وعلى الناحية التي امتاز بها والفصول الكيّسة الواردة فيه ، تعليقاً يدل على وقوف على الكتب واطلاع على محتوياتها ومادتها . وكثير من هذه الكتب مفقودة لا نعرف من أمرها شيئاً . وقد نقل المسعودي منها وأشار إلى أسمائها عند نقله منها فقدم لنا بذلك مفتاحاً قد يساعد في المستقبل في تشخيص تلك الكتب وفي الوقوف عليها . وتعد هذه المؤلفات

المصادر الرئيسية التي استقى منها المسعودي كتبه .

أما مصادره الأخرى ، فهي كتب استفاد منها وأشار إليها ، لم يشر إليها في المقدمة ، وإنما ذكرها بالمناسبة وفي الأمكنة الملائمة التي اعتمد فيها على تلك المصادر . وهي مصادر متنوعة . منها ما هو في التاريخ أو في الأدب ومنها ما هو في الجغرافية أو الموسيقى والطب أو في فروع المعرفة الأخرى . وبينها كتب لم يعرف أمرها قبلاً فهو يشير إليها لأول مرة . وقد يحدد عدد فصولها ويذكر محتوياتها ، ويقتبس منها اقتباساً بالحرف الواحد ، وكثير منها كتب مفقودة في الوقت الحاضر . ولذلك فإن إشاراته هذه إليها واقتباساته منها حرفياً ، تفيد المؤرخ فائدة عظيمة في التعرف على حركة التأليف في تلك الأيام وفي تشخيص وتثبيت المخطوطات .

ومصدر آخر استقى منه المسعودي منه معرفته وعلمه ، هو الجهد الشخصي الذي بذله بنفسه ، فالفضل فيه يعود إليه وحده ، لأنه هو الذي قام بجمع المادة وتنسيقها وتسطيرها ، جمعها من رجوعه إلى شهود العيان الذين حضروا الحوادث ورآوها بأنفسهم ، أو جالسوا الخلفاء وأصحاب الكلمة والرأي وحادثوهم وسمعوا منهم أو كتبوا لهم ، وتولوا الوظائف لديهم . فلهم بحكم هذه الوظائف والمنازل علم ببواطن الأمور واطلاع على الأسرار ، فكلمهم وأخذ منهم . وجمعها أيضاً من ذهابه إلى العلماء والرؤساء والأشراف ، للاستفسار منهم والأخذ

عنهم ، والتعرف على حياتهم وتجاربهم وعلمهم ، وما عندهم من كتب وذخائر نفيسة . وجمعها من أسفاره وتجاربه واتصاله بمختلف الناس من جميع الطبقات . وندرك هذا الجهد خاصة وبصورة واضحة في الفصول التي عقدها عن الأمصار والبلدان التي زارها ، وعن البحار وعن الأيام القريبة من أيامه ، وعن أيامه ، فتراه يشير إلى أسماء من كلمهم وحادثهم وراسلهم ويذكر حديثه إليهم .

٢ ـ تنظيم الموضوعات على أساس الدول أو عهود الخلفاء والحكام :

سار المؤرخون العرب في تنظيم موضوعاتهم على المنهج الحولي أو حسب السنين ، فكانوا يتتبعون الحوادث ويسجلونها حسب سنواتها . وكانت مختلف الحوادث تجمع في كل سنة وتربط فيما بينها بكلمة « وفيها » . فإذا انتهت حوادث السنة الواحدة انتقل المؤرخ إلى حوادث السنة التالية فيستخدم الجملة الآتية « ثم دخلت سنة كذا » أو « جاءت سنة كذا » .

وهذه الطريقة كان من شأنها أن تمزق سياق الحادثة التاريخية الطويلة التي تتواصل وتمتد إلى عدد من السنين ، فلا يذكر المؤرخ الذي يتبع هذا المنهج إلاّ ما يخص حوادث تلك السنة التي يجمع كل أحداثها . فإذا كان لهذه الحادثة بقية في سنة ثانية أو ثالثة ، ذكرها متفرقة في جملة أحداث تلك السنة التالية ، مما لا يسمح بذكر تقرير متتابع عن الحادثة التي تمتد

إلى عدد من السنين ضمن سنة معينة ، إضافة إلى ذلك أن هذه الطريقة تخلو من التنسيق ، كما تدعو إلى ملل القارىء[1] .

أما المسعودي ، فهو مثل اليعقوبي ، لم يسر في القسم الخاص بتاريخ الإسلام على ترتيب السنين ، أو المنهج الحولي ، كما فعل الطبري ، بل سار على حسب ترتيب حكم الخلفاء . وقد سلك هذا المسلك أيضاً في الفصول المدونة بتاريخ الفرس واليونان والرومان . فهو يذكر الملك ، ثم يتطرق لذكر الحوادث التي وقعت في أيامه ، فإذا أتم ما عنده انتقل إلى حكم من خلفه وهكذا حتى النهاية .

أخذ المسعودي هذه الطريقة من تواريخ الفرس والسريان . وقد ذكر المسعودي نفسه هذه الطريقة ، ذكر أنه وجد في كتب تواريخ الفرس صور الملوك وأعمالهم وصفاتهم ومدد حكم كل ملك منهم منذ حكم إلى يوم وفاته ، ثم من خلفه إلى آخر دولهم . ولا بد أن يكون المسعودي قد تأثر بطريقتهم هذه فسار عليها وطبقها حتى في القسم الخاص بتاريخ الإسلام . والظاهر أنه اتبع هذه الطريقة في كتبه التاريخية الأخرى كذلك .

أما تواريخ المبدأ والخليقة والرسل والأنبياء ، فقد سلك فيها هو وغيره مثل اليعقوبي والطبري والمسعودي وبقية المؤرخين ،

---

(١) روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ١٠١ ـ ١٠٢ . عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون ص ٨٣ .

الطريقة التي وجدوها عند أهل الكتاب ، وهي طريقة مبنية على أسس توراتية . ولم يكن أمامهم غير سلوك هذه الجادة ، لأنهم لم يجدوا طريقة غيرها عند الأقدمين .

ثالثاً ـ تقويم اسهامات المسعودي التاريخية والجغرافية .

تأثر المسعودي بالبيئة التي عاش فيها ، فقد شهد مطلع القرن الرابع الهجري نهضة علمية ثقافية . وجاب المسعودي معظم الأقطار العربية وكثيراً من البلاد الأخرى . وقد قضى أكثر من خمس وعشرين سنة من عمره يطوف أرجاء العالم القديم فجمع أنواعاً مختلفة عديدة من العلوم والثقافات ، ودوّنها في كتبه العديدة على أساس منهج علمي محدد ، وقد وصف أحوال الأمم ونحلهم وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم ، كما أعطى صوراً عديدة ناطقة للبحار والجبال والممالك والدول .

وقد أثرت رحلات المسعودي في كتاباته المختلفة ، فقد كان بعيداً عن التيارات السياسية والمذهبية التي دفعت بضع المؤرخين إلى العصبية أو الشعوبية . وأمضى المسعودي معظم سنوات حياته في رحلات مستمرة فلم يقع تحت سيطرة حاكم أو أمير ، مما يجعله يتملقه أو يتحامل عليه ، واعتاد الحرية على التنقل ومارس هذه الحرية في كتابته فأصبح حراً في نقده التاريخي حتى أنه لم يجد حرجاً في انتقاد الخلفاء العباسيين المعاصرين له ، ووصفهم بالضعف وسيطرة الأتراك عليهم ،

فذكر أنهم صاروا « مقهورين خائفين ، قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة » وأنهم كانوا « كالمولى عليهم ، لا أمر ينفذ لهم » .

لم يتبع المسعودي سنة من سبقه من المؤرخين ، بل وضع منهجاً جديداً وطوّر الدراسات التاريخية . وقد تأثر كثير من المؤرخين بمنهجه وفي مقدمتهم ابن خلدون . فقد حاد المسعودي عن طريقة الطبري في كتابة التاريخ حيث اتبع طريقة التأريخ بالسنين أو التاريخ الحولي ، فكان يؤرخ لأحداث التاريخ سنة سنة . أما المسعودي فقد ابتعد عن التأريخ بالسنين واتبع طريقة اليعقوبي وأبي حنيفة الدينوري بتقسيم التاريخ تقسيماً موضوعياً وجعل الشخصيات التاريخية أحياناً محوراً لدراسته وخاصة عند حديثه عن العصر الإسلامي ، لكنه طوّرها وأضاف إليها من تجاربه وخبراته الكثير ، ومزج الدراسات التاريخية بالجغرافية ، وفتح آفاقاً جديدة في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، واهتم بمعالم الحضارات المختلفة . كما لزم المسعودي الطريقة الموضوعية ، فأصبحت الشعوب والملوك والأسرات والخلفاء محاور لدراسته .

تحدث المسعودي في مقدمة كتابه مروج الذهب عن بعض المؤرخين الذين تأثر بهم فتحدث عن قيمة كتاب المعارف لابن قتيبة الدينوري ، ثم أشاد بكتب الطبري وأطنب في مدحه

ووصفه بأنه « فقيه عصره ، وناسك دهره ، إليه انتهت علوم فقهاء الأمصار وحملة السنن والآثار » . ووصف كتابه بأنه « الزاهي على المؤلفات » . كما امتدح المسعودي كتب نفطويه ، فالمؤلف « أحسن علماء عصره تأليفاً وأصلحهم تصنيفاً » . ونقد المسعودي كتاب الأوراق للصولي وامتدحه لأن المؤلف اعتمد على المشاهدة ، ودعم مشاهداته بالعلم والمعرفة . وأشار المسعودي إشارة عابرة إلى كتاب ابن الماشطة ، ثم أطنب في مدح كتب قدامة بن جعفر لأنه « حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجز للألفاظ ، معرب للمعاني » . وكان المسعودي قاسياً في نقده لسنان بن ثابت بن قرة الحراني حيث وصفه بأنه « انتحل ما ليس في صناعته ، واستنهج ما ليس في طريقته » . كما انتقد الجاحظ . وقد برر المسعودي نقده لهذه الكتب فاستشهد بعبارة لابن المقفع « من وضع كتاباً فقد استهدف ، فإن أجاد فقد استشرف ، وإن أساء فقد استقذف » .

وأثّر المسعودي في الدراسات التاريخية والجغرافية تأثيراً عميقاً واضحاً . فأما في مجال الدراسات التاريخية فإن المسعودي وضع أسس مدرسة جديدة في دراسة التاريخ ، فلم يتبع الطريقة القديمة ، وهي طريقة السرد التاريخي ، بل اهتم بالتحليل التاريخي والبحث عن المسببات والدوافع ، ونقد الأحداث ، ووصل بذلك إلى نتائج هذا . وحذا ابن خلدون حذو المسعودي في منهجه وزاد عليه ، مما جعل ابن خلدون

يبرز على كثير من المؤرخين والمفكرين .

وفي مجال الدراسات الجغرافية ، انتهج المسعودي نهجاً جديداً ، فلم تكن رحلاته للنزهة أو الكسب ، بل لمشاهدة معالم البلاد ومعرفة أخبارها . وتدل كتبه على معرفة واسعة باللغات والعادات والتقاليد والأدب والأخلاق والسياسة ، وهو بهذا أكثر دقة وعمقاً من غيره من الرحالة والجغرافيين . وقد سار كل من الإصخطري وابن الفدا على نهج المسعودي في رحلاته .

ولكن مما يؤخذ على المسعودي تأليفه عدة كتب في موضوع واحد ، وبعضها مثل الإمامة بحوثه محدودة ، ومادته معيّنة . ويظهر أنه كان حين يشرع في تأليف كتاب له يدون كل ما يعلق في ذهنه عنه ، ثم يشرع في تأليفه حتى ينتهي منه ، فتكون هذه النسخة هي النسخة الأولى ، ثم يعود فيضيف عليها مادة جديدة ، أو يختصرها ، وقد يسمي المختصر أو المطوّل باسم جديد . ومن هنا صارت مؤلفاته إعادة وتكراراً لا كتباً مستقلة تمام الاستقلال ذات مادة جديدة لا نجدها في كتبه الأخرى . لقد كان بإمكانه جمع مادته التي بعثرها في سلسلته التاريخية في كتاب واحد ضخم ذي أجزاء يبذل فيه كل جهده وعلمه ليجعله شاملاً جامعاً ، بدلاً من أن يتعب نفسه في تطويل ثم في اختصار ، ثم في تأليف كتب وسط . وكان في إمكانه فعل مثل ذلك في موضوع الملل والآراء والنحل والإمامة .

كما نجد أن المسعودي يناقض نفسه أحياناً ، فيذكر تاريخاً لتولي خليفة في مروج الذهب ، ثم يذكر تاريخاً آخر يختلف عنه بعض الاختلاف في كتابه التنبيه والإشراف[1] . وقد نشأ هذا الاختلاف على ما يبدو من عدم رجوعه إلى كتابه الأول حين كتب كتابه الثاني . ودليل ذلك أنه أشار في كتابه « التنبيه » مثلاً حين كلامه عن « الموبذ اسنديار بن أغيذ الذي قتله الخليفة الراضي بمدينة السلام سنة ٣٢٥ » فقال : « وقد أتينا على خبره وقصة مقتله وما ذكر من سببه مع القرمطي سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي صاحب البحرين في ذلك في أخبار الراضي من كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر »[2] . وحين نراجع المكان الذي خصصه من نسخة مروج الذهب المطبوعة لا نجد له ذكراً ولا إشارة فيه ، كما يدل على أنه حين كتب هذه الإشارة لم يكن قد نظر في كتاب « مروج الذهب » ، فلم يفطن إلى ذلك .

ومن هذا القبيل ما نراه من اختلاف بين أسماء ملوك الروم ومدد حكمهم وفي ترتيبهم بين الكتابين[3] فإن ذلك لا يمكن أن يقع من مؤلف ، إلاّ أن يكون قد أهمل كتابه الأول مدة طويلة ،

---

(١) يراجع بعض المراجع في مروج الذهب ٢/٥٢٠ ، ٥٤٠ وغيرها مقارنة بالصفحات ٣٣٧ ، ٣٤٥ وغيرها من كتاب التنبيه والإشراف .

(٢) التنبيه والإشراف ص ٩١ .

(٣) تراجع الفصول التي خصصها المسعودي في المروج عن الروم ، وما كتبه عنهم في التنبيه .

فلما شرع في كتابة مؤلفه الثاني لم يراجع كتابه الأول ، بل كتب على نحو ما كان عالقاً في ذهنه وما وجده أمامه من مصادر ، فوقع من ثم هذا الاختلاف . والأغلب أنه لم يكن يراجع مؤلفاته السابقة فنجده لذلك يعتذر مراراً عن أخطاء قد يقع فيها وعن هفوات قد تصدر منه ، فيقول : « على أنّا نعتذر من سهو إن عرض في تصنيفنا مما لا يسلم منه من لحقته غفلة الإنسانية ، وسهوة البشرية ، ثم ما دفعنا إليه من طول الغربة وبعد الدار ، وتواتر الأسفار ، طوراً مشرقين وطوراً مغربين »[1] .

ويلاحظ أيضاً أن المسعودي لم يركز بحوثه وفصول الكتاب الواحد ، فبينما هو مشغول في موضوع خاص يتحدث عنه ، تراه يطفر فجأة إلى موضوعات أخرى ، فيفصل فيها وتبسط في الكلام عنها ، حتى إذا ما انتهى منها وأحسّ بأنه قد ابتعد عن الموضوع ، عاد فاعتذر عن هذا الاستطراد ملمحاً بأنه قد بحث عنه بحثاً مبسطاً في كتبه السابقة ، ولذلك فهو يكتفي بما أورده الآن ، ليعود إلى موضوعه الذي كان فيه . حتى صارت مادة الاستطرادات فيه أكثر من مادة الموضوع الأهل . ولو ركز المسعودي كلامه وعني بوحدة الموضوع ، لكان بإمكانه وضع الاستطرادات في الأماكن المناسبة لها ، أي في الفصول المناسبة ، فتخرج مؤلفاته بذلك مركزة منسقة . فالمواد التي

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٦ .

ذكرها عن النصرانية مثلاً مشتتة مبعثرة في مواضع متعددة ، وقد كان بإمكانه حصرها كلها في فصل يعقده عن تطور النصرانية وتأريخها ، وكان بإمكانه فعل مثل ذلك عن الفلسفة أو اليهودية ، أو عن الهند ، حيث جزأ كلامه عنها ونثره نثراً في مواضع عديدة ، وكذلك في البحار حيث تكلم عنها في مكان ، ثم تركها وتكلم عن أمور بعيدة عنها ، وبعد فصول عاد إليها كرة أخرى . ولو أخذنا البحث المعنون بـ « ذكر شهور السريانيين ، ووصف موافقتها لشهور العرب وعدته أيام السنة ومعرفة الانواء »[1] ، نجد أن أكثره في موضوعات لا علاقة لها بشهور السريانيين ، بل بأمور بعيدة عنها مثل : زمن المهرجان ومعناه ، ثم أعياد النصارى ، ثم بطارقة النصارى ، فكنائس انطاكية . وقد فعل مثل ذلك في بقية بحوثه عن الشهور ، وكان الأحرى به أن يجمع هذا المشتت عن الشهور في فصل واحد ، ووضع ما له علاقة بها في أماكنها المناسبة ، ليكون عمله أكثر فائدة وأنفع للقارىء بحيث يسهل عليه الوقوف على الموضوع الواحد ، بدلاً من أن يتنقل من هنا وهناك ليجمع ما ورد عن ذلك الموضوع .

ولعل طريقته هذه في التأليف هي التي حملت البعض على وصف المسعودي بالتسرع وبقلة الصبر ، وبعدم تمكنه من تركيز

(١) مروج الذهب ٢/١٠٢ .

جهده على موضوع واحد ، وبتنقله من موضوع إلى موضوع ، وباستطراده وبخروجه من موضوعات رئيسية إلى موضوعات ثانوية . وبالتالي فإنه لم يكن عميقاً في العلم وفي المعرفة ، وأنه لم يرجع إلى المصادر الأصيلة ليأخذ منها ، وأنه تقبل الخرافات ومال إليها . ومن الغريب أن التهمة التي اتهم بها البعض المسعودي من أنه ناقل غير مدقق ولا ناقد ، وأنه لا يرجع إلى الأصول والمراجع ، هي تهمة وجهها المسعودي نفسه إلى بعض من ألّف قبله وإلى بعض من عاصره وزامله .

تاريخ الخليقة

« ذكر المبتدأ وشأن الخليقة وذرء البرية »

(مروج الذهب ١/٢٨ ـ ٣١)

اتفق أهل العلم جميعاً من أهل الإسلام أن الله عز وجلّ خلق الأشياء على غير مثال وابتدعها من غير أصل ، ثم رُوي عن ابن عباس وغيره : « أن أول ما خلق الله عز وجلّ الماء وكان عرشه عليه ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع الدخان فوق الماء فسمّاه سماء ، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين ، في يومين : الأحد والاثنين ، وخلق الأرض على حوت ، والحوت هو الذي ذكره الله سبحانه في القرآن في قوله تعالى : ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ والحوت في الماء ، والماء على الصفا ، والصفا على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة على الريح ، وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن حكاية عن قول لقمان لابنه ﴿ يا بنيَّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ . فاضطرب الحوت فتزلزلت الأرض ، فأرسى الله عليها الجبال فقرّت الأرض ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بك ﴾ ، وخلق الجبال فيها ، وخلق أقوات

أهلها ، وسخّرها وما ينبغي لها ، في يومين ، في يومي الثلاثاء والأربعاء ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين** ﴾ ، فكان ذلك الدخان من نفس الماء حين تنفّس فجعلها سماء واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبعاً في يومين ، في يومي الخميس والجمعة ، وإنما سمي الجمعة لأن الله جمع فيه خلق السموات والأرض ، ثم قال ﴿ **وأوحى في كل سماء أمرها** ﴾ .

يقول : خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البَرَد ، وأن سماء الدنيا من زمردة خضراء ، والسماء الثانية من فضة بيضاء ، والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء ، والسماء الرابعة من درة بيضاء ، والسماء الخامسة من ذهب أحمر ، والسماء السادسة من ياقوتة صفراء ، والسماء السابعة من نور ، قد طبقها الله بملائكة قيام على رجل واحدة تعظيماً لله لقربهم منه ، قد خرقت أرجلهم الأرض السابعة واستقرّت أقدامهم على مسيرة خمسمائة عام تحت الأرض السابعة ، ورؤوسهم تحت العرش من غير أن تبلغ العرش ، وهم يقولون : لا إله إلاّ الله ذو العرش المجيد فهم على ذلك منذ أن خلقوا إلى أن تقوم الساعة وتحت العرش بحر تنزل منها أرزاق الحيوان ، يومىء الله تعالى

إليه فيمطر ما شاء الله من سماء إلى سماء ، حتى ينتهي إلى موضع يقال له الأبرم ، فيوحي الله إلى الريح فتحمله إلى السحاب فتغربله ، وتحت سماء الدنيا بحر من ماء يطفح فيه من الدواب مثل ما في بحور الأرض مستمسك بالقدرة .

وأن الله تعالى أسكن ظهر الأرض ، لما فرغ من خلقها ، الجن ، قبل آدم ، فجعلهم من مارج من نار ، وإبليس منهم ، فنهاهم الله أن يسفكوا دم البهائم ، وأن يظهروا المعصية بينهم ، فسفكوا وعدا بعضهم على بعض . فلما رآهم إبليس لا يقلعون عن ذلك سأل الله تعالى أن يرفعه إلى السماء ، فصار مع الملائكة يعبد الله أشدّ عبادة ، وأرسل الله إلى الجن ، وهم حزب إبليس ، قبيلاً من الملائكة فطردهم إلى جزائر البحار وقتلوا من شاء الله منهم ، وجعل الله إبليس على سماء الدنيا خازناً ، فوقع في صدره كبرٌ .

ثم شاء الله عز وجلّ أن يخلق آدم فقال الله للملائكة : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ فقالوا ربّنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : تكون له ذرية ويفسدون في الأرض ، ويتحاسدون ، ويقتل بعضهم بعضاً . فقالوا : ربنا ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ .

ذكر أنساب فارس وما قاله الناس في ذلك

(مروج الذهب ١/٢٣٧ ـ ٢٣٨)

تنازع الناس في الفرس وأنسابهم ، فمنهم من رأى أن فارس بن ياسور بن سام بن نوح ، وكذلك النبط من ولد نبيط بن ياسور بن سام بن نوح ، وهذا قول هشام بن محمد فيما حكاه عن أبيه وغيره من علماء العرب ، ففارس ونبيط أخوان ، وهما ابنا ياسور ، ومنهم من زعم أنه من ولد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل صلوات الله عليهم ، ومنهم من ذكر أنه من ولد إرم بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وأنه ولد له بضعة عشر رجلاً كلهم كان فارساً وشجاعاً فسموا الفرس بالفروسية وفي ذلك يقول حطان بن المعلى الفارسي :

وبِنا سميَّ الفوارس فرساً ومنّا مناجب الفُرسان
وكهول طواهم الركض والكـ ـرُّ كمثل الكُراتِ يومَ الطِّحان

وقد زعم قوم أن الفرس ولد لوط من ابنتيه ، زُهي ورَغوى ، ولأصحاب التوراة في هذا خبر طويل . وذكر آخرون أنهم من ولد بوّان بن إيران بن الأسود بن سام بن نوح ، وبوان هذا هو الذي ينسب إليه شِعْب بوّان من بلاد فارس ، وهو أحد المواضع

المشهورة في العالم بالحسن وكثرة الأشجار ، وتدفق المياه ، وكثرة أنواع الأشجار ، وقد ذكره بعض الشعراء فقال :

فشعب بوّوان فوادي الراهب   فثمّ تُلقى ارحلُ النجائب

ومنهم من رأى أن الفرس من ولد إيران بن أفريدون ، وقد قدّمنا في صدر هذا الكتاب أخبار ولد أفريدون حين قسّم الأرض بينهم وما قاله الشاعر في ذلك من قوله :

ولأيران جعلنا عنوة   فارس الملك وفزنا بالنعم

فأضيف الفرس إلى ذلك ، وإيران تسمية الفرس أيرج إذا عرفوا اسمه ، ولا تناكر بين الفرس جميعاً في أنها من ولد أيرج جميعاً ، وأيرج هو إيران بن أفريدون .

ذكر ملوك اليونانيين ولمع من أخبارهم
وما قاله الناس في بدء أنسابهم

(مروج الذهب ١/٢٨٥)

قال المسعودي : تنازع الروم في فرق اليونانيين : فذهب طائفة من الناس إلى أنهم ينتمون إلى الروم ، ويضافون إلى ولد إسحاق ، وقالت طائفة أخرى : إن يونان هو ابن يافث بن نوح ، وذهب قوم إلى أنهم من ولد آراش بن ناوان بن يافث بن نوح ، وذهب قوم إلى أنهم قبيل متقدم في الزمان الأول ، وإنما وَهِم من وَهِم أن اليونانيين ينسبون إلى حيث تنسب الروم . وينتمون إلى جدهم إبراهيم ، لأن الديار كانت مشتركة ، والمَقَاطن والمواطن كانت متساوية ، وكان القوم قد شاركوا القوم في السجية والمذهب ، فلذلك غلط من غلط في النسبة ، وجعل الأب واحداً ، وهذا طريق الصواب عند المفتشين ، وبل البحث عن الباحثين ، والروم قفت في لغاتها ووضع كتبها اليونانيين فلم يصلوا إلى كنه فصاحتهم وطلاقة ألسنتهم ، والروم أنقص في اللسان من اليونانيين ، وأضعف في ترتيب الكلام الذي عليه نهج تعبيرهم وسنن خطابهم .

قال المسعودي : وقد ذكر ذو العناية بأخبار المتقدمين أن

يونان أخو قحطان ، وأنه من ولد عابر بن شالخ ، وأن أمره في الانفصال عن دار أخيه كان سبب الشك في الشركة في النسب ، وأنه خرج عن أرض اليمن في جماعة هنالك ، وانسل في تلك الديار ، واستعجم لسانه ، ووازى من كان هنالك في اللغة الأعجمية من الأفرنجة والروم ، فزالت نسبته وانقطع سببه وصار منسيّاً في ديار اليمن ، غير معروف عند النسّابين منهم .

وكان يونان جباراً عظيماً ، وسيماً جسيماً ، وكان حسن العقل والخلق جزْل الرأي ، كثير الهمة ، عظيم القدر .

ذكر ملوك الروم وما قاله الناس في أنسابهم وعدد ملوكهم وتاريخ سنيهم

(مروج الذهب ١/٣٠٨ وما بعدها)

تنازع الناس في الروم ، ولأنه علة سمّوا بهذا الاسم ، فمنهم من قال : سموا روماً لإضافتهم إلى مدينة رومية ، واسمها روماس بالرومية ، وعرب هذا الاسم فسمي من كان بها روماً ، وكذلك الروم في لغتهم لا يسمون أنفسهم ولا يدعوهم أهل الثغور إلاّ رومينس ، ومنهم من رأى أن هذا الاسم اسم للأب ، وهو روم بن سماحلين بن هربان بن عقلا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام . ومنهم من رأى أنهم سمّوا باسم جدِّهم ، وهو رومي بن ليطن بن يونان بن يافث بن بريه بن سرجون بن رومية بن مريط بن نوفل بن روين بن الأصغر بن النفر بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . وقد قيل غير ما ذكرنا ، وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب اليونانيين نسب الاسكندر واتصاله بهذا النسب ، على ما ذكره الناس في ذلك ، والله أعلم . وقد ولد للعيص ثلاثون رجلاً ، فالروم الآخرة بنو الأصفر بن النفر بن العيص بن إسحاق وقد ذكر جماعة ممن سلف من شعراء العرب

قبل ظهور الإسلام ذلك الاشتهار ما وصفنا فيهم ، منهم عدي بن زيد العبّادي حيث يقول :

وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور

وقد كان العيص بن إسحاق ، وهو عيصو ، تزوج من بنات الكنعانيين ، فأكثر أولاده منهم ، وقد قيل : إن العماليق وهم العرب البادية الذين كانوا بالشام ، من ولد النفر بن عيصو وهذا ما لا ينقاد إليه علماء العرب إلاّ في الروم دون ما ذكرنا من العماليق وغيرهم . وهذه الأنساب كلها تتعلق بما في التوراة وغيرها من كتب العبرانيين .

ذكر ديانات العرب وآرائها في الجاهلية

(مروج الذهب ٢/١٢٦ وما بعدها)

قال المسعودي : كانت العرب في جاهليتها فرقاً : منهم الموحد المقر بخالقه ، المصدّق بالبعث والنشور موقناً بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي ، وقد تقدم ذكرنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا من دعا إلى الله عز وجلّ ونبّه أقوامه على آياته في الفترة ، كقس بن ساعدة الأيادي ورئاب الشني ، وبحيرا الراهب ، وكان من عبد القيس .

وكان من العرب من أقر بالخالق ، وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والإعادة ، وأنكر الرسل ، وعكف على عبادة الأصنام ، وهم الذين حكى الله عزّ وجلّ قولهم ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، وهذا الصنف هم الذين حجّوا إلى الأصنام وقصدوها ، ونحروا لها البدن ، ونسكوا لها النسائك ، وأحلّوا لها وحرّموا .

ومنهم من أقرّ بالخالق ، وكذّب بالرسل والبعث ، ومال إلى قول أهل الدهر وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم وخبّر عن كفرهم بقوله تعالى : ﴿ وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت

ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر ﴾ فرد الله عليهم بقوله ﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنّون ﴾ .

ومنهم من مال إلى اليهودية ، ومنهم المار على لهجته الراكب لهجته .

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله ، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله ، وهم الذين أخبر الله عز وجلّ عنهم بقوله تعالى ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾ وقوله تعالى ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ .

فمّمن كان مقراً بالتوحيد ، مثبتاً للوعيد ، تاركاً للتقليد ، عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف .

اشتراك الرسول في إعادة بناء الكعبة

(مروج الذهب ٢ / ٢٧٨ ـ ٢٧٩)

.. ولما بنت قريش الكعبة ورفعت سمكها ، وتأتى لها ما أرادت في بنيانها من الخشب الذي ابتاعوه من السفينة التي رمى بها البحر إلى ساحلهم التي بعث بها ملك الروم من القلزم من بلاد مصر إلى الحبشة ، لتبنى هنالك له كنيسة ، وانتهوا إلى موضع الحجر على ما ذكرنا وتنازعوا أيهم يضعه ، فاتفقوا على أن يرضوا بأول من يطلع عليهم من باب شيبة ، فكان أول من ظهر لأبصارهم النبي ﷺ من ذلك الباب وكانوا يعرفونه بالأمين لوقاره وهديه وصدق لهجته واجتنابه القاذورات والأدناس ، فحكّموه فيما تنازعوا فيه وانقادوا إلى قضائه ، فبسط ما كان عليه من رداء . وقيل : كساء طاروني ، وأخذ عليه الصلاة والسلام الحجر فوضعه في وسطه ، ثم قال لأربعة رجال من قريش وهم أهل الرياسة فيهم والزعماء منهم ، وهم : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم ، وقيس بن عدي السهمي ، ليأخذ كل واحد منهم بجنب من جنبات هذا الرداء ، فشالوه حتى ارتفع عن الأرض ،

وادنوه من موضعه . فأخذ عليه الصلاة والسلام الحجر ووضعه مكانه وقريش كلها حضور ، وكان ذلك أول ما ظهـر من فعله وفضائله وأحكامه . فقال قائل ممن حضر من قريش متعجباً من فعلهم وانقيادهم إلى أصغرهم سناً وأقلهم مالاً ، فجعلوه عليهم رئيساً وحاكماً : أما واللات والعزى ليفوقنّهم سبقاً ، وليقسمنّ بينهم حظوظاً وجدوداً ، وليكوننّ لـه بعد هـذا اليوم شـأن ونبأ عظيم .

ما حدث بين عثمان وأبي ذر الغفاري من خلاف كان من عوامل غضب بعض المسلمين على عثمان

(مروج الذهب ٢/٣٤٨ - ٣٤٩)

. . . ومن ذلك ما فعل بأبي ذر ، وهو أنه حضر مجلسه ذات يوم فقال عثمان : أرأيتم من زكّى ماله هل فيه حق لغيره ؟ فقال كعب : لا يا أمير المؤمنين . فدفع أبو ذر في صدر كعب وقال له : كذبت يا ابن اليهودي ، ثم تلا ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب** ﴾ ، فقال عثمان : أترون بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه ؟ فقال كعب : لا بأس في ذلك . فرفع أبو ذر العصا فدفع بها في صدر كعب ، وقال : يا ابن اليهودي ما أجرأك على القول في ديننا ؟ فقال له عثمان : ما أكثر إذ ذاك لي ، غيّب وجهك عني فقد آذيتني .

فخرج أبو ذر إلى الشام ، فكتب معاوية إلى عثمان : إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع ، ولا آمن أن يفسدهم عليك ، فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك . فكتب إليه عثمان بحمله ، فحمله على بعير عليه قتب يابس معه خمسة من الصقالبة يطيرون به ، حتى أتوا به المدينة وقد تسلّخت بواطن

أفخاذه وكاد أن يتلف . فقيل له : إنك تموت من ذلك . فقال : هيهات أن أموت حتى أُنفى . وذكر جوامع ما ينزل به بعد ومن يتولى دفنه .

فأحسن إليه عثمان في داره أياماً ، ثم دخل إليه فجلس على ركبتيه وتكلم بأشياء ، وذكر الخبر في ولد أبي العاص إذا بلغوا ثلاثين رجلاً اتخذوا عبادة الله خَوَلاً ، ومرّ في الخبر بطوله ، وتكلّم بكلام كثير .

وكان في ذلك اليوم قد أتى إلى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف الزهري من المال ، فنثرت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم ، فقال عثمان : إني لأرجو لعبد الرحمن خيراً ، لأنه كان يتصدق ، ويقري الضيف ، وترك ما ترون . فقال كعب الأحبار : صدقت يا أمير المؤمنين . فشال أبو ذر العصا فضرب بها رأس كعب ، ولم يشغله ما كان فيه من الألم وقال : يا ابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة ، ونقطع على الله بذلك ، وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما يسرني أن أموت وأدع ما يزن قيراطاً » فقال له عثمان : وارِ عني وجهك ، فقال : أسير إلى مكة قال : لا والله . قال : فتمنعني من بيت ربي أعبده فيه حتى أموت ؟ . قال : أي والله . قال : فإلى الشام . قال : لا والله . قال : البصرة ؟ قال : لا والله ، فاختر غير هذه البلدان . قال :

لا والله ما اختار غير ما ذكرت لك ، ولو تركتني في دار هجرتي ما أردت شيئاً من البلدان . فسيِّرني حيث شئت من البلاد . قال : فإني مسيِّرك إلى الربذة . قال : الله أكبر ، صدق رسول الله ﷺ ، قد أخبرني بكل ما أنا لاقٍ . قال عثمان : وما قال لك ؟ قال : أخبرني بأني أُمنع عن مكة والمدينة وأموت بالربذة ويتولى دفني نفر ممن يردون من العراق نحو الحجاز .

وبعث أبو ذر إلى جمل له فحمل عليه امرأته ، وقيل ابنته ، وأمر عثمان أن يتجافاه الناس حتى يسير إلى الربذة .

نهاية أسرة بني أمية وقيام الدولة العباسية

(التنبيه والإشراف ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦)

لما قتل مروان بن محمد ، تفرقت بنو أمية في البلاد هـرباً بأنفسهم ، وقد كان عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبـد المـطلب قتـل منهم على نهـر أبي فـطرس ، من بـلاد فلسطين ، نحواً من ثمانين رجلاً مثلة ، واحتذى أخوه داوود بن علي بالحجاز فعله ، فقتـل منهم نحواً من هـذه العدة بـأنواع المثل ، وكان مع مروان حين قتل ابناه عبد الله وعبيد الله ، وكانا وليي عهده ، فهربا فيمن تبعهما من أهلهما ومواليهما وخواصهما من العرب ومن انحاز إليهم من خراسان من شيعة بني أمية .

فساروا إلى أسوان من صعيد مصر ، وسـاروا على شاطىء النيـل إلى أن دخلوا أرض النوبـة وغيرهم من الأحـابش ، ثم توسطوا أرض البجّـة ميممين باضـع من ساحـل بحر القلزم ، فكانت لهم مع من مروا به من هذه الأمم حروب ومغاورات ، ونالهم جهد شديد وضر عظيم . فهلك عبيد الله بن مروان في عدة من كان معهم قتلاً وعطشاً وضرّاً ، وشاهد من بقي منهم أنواع الشدائد وضروب العجائب .

وواقع عبد الله بن مروان في عدة ممن نجا معه إلى باضع من ساحل المعدن وأرض الجبة ، وقطع البحر إلى جدّة من ساحل مكة ، وتنقل فيمن نجا معه من أهله ومواليه متسترين راضين أن يعيشوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً . فظفر بعبد الله أيام أبي العباس السفاح فأودع السجن . فلم يزل فيه بقية أبي العباس وأيام المنصور والمهدي والهادي ، فأخرجه الرشيد وهو شيخ ضرير ، فسأله عن خبره ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حُبستُ غلاماً بصيراً ، وأُخرجت شيخاً ضريراً .

فقيل إنه هلك في أيام الرشيد وقيل بل في أيام المأمون .

فتح عمورية زمن المعتصم

(مروج الذهب ٤/٣٥٧ وما بعدها ط. بلّلا)

وفي هذه السنة ، وهي سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، خرج تيوكيل بن ميخائيل ملك الروم في عساكره ومعه ملوك بُرجان والبُرغر والصقالبة وغيرهم ممن جاورهم من ملوك الأمم ، حتى نزل مدينة زِبَطْرة من الثغر الجَزريّ فافتتحها بالسيف وقتل الصغير والكبير وسبى ؛ وأغار على مدينة مَلَطْيَة ، فضج الناس في الأمصار واستغاثوا في المساجد والديار ؛ ودخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم فأنشده قصيدة طويلة يذكر فيها ما نزل بمن وصفنا ويحضّه على الانتصار ويحثه على الجهاد منها :

يا غيرة الله قد عاينت فانتقمي
تلك النساء وما منهن يُرتكب
هبِ الرجال على أجرامها قُتلت
ما بال أطفالها بالذبح تُنتهب

وإبراهيم بن المهدي أول من قال في شعره « يا غيرة الله » .

فخرج المعتصم من فوره نافراً عليه دُرّاعة صوف بيضاء وقد تعمم بعمامة الغزاة ، فعسكر بغربي دجلة ، وذلك يوم الاثنين

لليلتين خلتا من جمادى الأولى من سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ونصبت الأعلام على الجسر ، ونودي في الأمصار بالنفير والسير مع أمير المؤمنين ، فسارت إليه العساكر والمطوّعة في سائر بلاد المسلمين ؛ وجعل على مقدمته اشناس التركي ، ويتلوه محمد بن إبراهيم ، وعلى ميمنته إيتاخ التركي وعلى ميسرته جعفر بن دينار الخيّاط ، وعلى ساقته بُغا الكبير ويتلوه دينار بن عبد الله ، وعلى القلب عُجيف . وسار المعتصم من الثغور الشاميّة ودخل من درب السلامة ، ودخل الأخشين من درب الحَدَث ، ودخل الناس من سائر الدروب ؛ ولم يكم يُحصي الناس العدد ولا يضبطون كثرة ، فمن مكثر ومقلّل ؛ فالمكثر يقول : خمس مائة ألف ، والمقلّل يقول : مائتي ألف .

ولقي ملك الروم الأخشين فحاربه ، فهزمه الأخشين وقتل أكثر بطارقته ووجوه أصحابه ، وحماه رجل من المتنصرة يقال له نُصير في خلق من أصحابه ؛ وقد كان الأخشين قصّر عن أخذ ملك الروم في ذلك اليوم حين ولّى ، وقال : « هو ملك والملوك تبقي على بعضها بعضاً » . وفتح المعتصم حصوناً كثيرة ونزل على عموريّة ففتحها الله على يديه ؛ وخرج إليه لاون البطريق منها وسلّمها إليه ؛ وأسر فيها البطريق الكبير وهو ياطس وقتل فيها ثلاثين ألفاً ؛ وأقام المعتصم عليها أربعة أيام يهدم ويحرق ؛ ثم أراد المسير إلى القسطنطينية والنزول على خليجها والحيلة في فتحها براً وبحراً ؛ فأتاه ما أزعجه وأزاله عما كان

عزم عليه في أمر العباس بن المأمون وأن ناساً قد بايعوه وأنه قد كاتب طاغية الروم : فأعجل المعتصم في مسيره وحبس العباس وشيعته ؛ وفي هذه السنة مات العباس بن المأمون .

رحلة المسعودي إلى الهند

(مروج الذهب ١/٨٢ ـ ٨٣)

وأرض الهند واسعة في البر والبحر والجبال ، وملكهم متصل بمليك الزابج ، وهي دار مملكة المهراج ملك الجزائر . وهذه المملكة قدر بين مملكة الهند والصين ، وتضاف إلى الهند . والهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت ، وبين هذه الممالك تباين وحروب ، ولغاتهم مختلفة ، وآراؤهم غير متفقة ، والأكثر منهم يقول بالتناسخ وتنقل الأرواح على حسب ما قدمناه آنفاً .

والهند في عقولهم وسياساتهم وحكمتهم وألوانهم وصفاتهم وصحة أمزجتهم وصفاء أذهانهم ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان من الزنج والدمادم ، وسائر الأجناس . وقد ذكر جالينوس في الأسود عشر خصال اجتمعت فيه ولم توجد في غيره : تفلفل الشعر ، وخفة الحاجبين ، وانتشار المنخرين وغلظ الشفتين ، وتحديد الأسنان ، ونتن الجلد ، وسواد الحدق ، وتشقق اليدين والرجلين ، وطول الذكر ، وكثرة الطرب .

والهند لا تملك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة ، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلاّ في كل برهة من الزمان معلومة . . ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية ، لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها خَرماً لهيبتها ، واستخفافاً بحقها . والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلاّ بالتخيّر ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة .

قال المسعودي : ورأيت في بلاد سرنديب ، وهي جزيرة من جزائر البحر ، أن الملك من ملوكهم إذا مات صيّر على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة معدة لهذا المعنى ، وشعره ينجرّ إلى الأرض وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه ، وتنادي : أيها الناس ، هذا ملككم بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه ، وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا ، وقبض روحه ملك الموت ، والحي القديم الذي لا يموت ، فلا تغترّوا بعده ! وتقول كلاماً هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم . ويطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة ، ثم يفصل أربع قطع ، وقد هيىء له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب ، فيحرق بالنار ، ويذر رماده في الرياح ، وكذا فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم ، لغرض يذكرونه ، ونهج يتيمّمونه في المستقبل من الزمان .

والملك مقصور على أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم ، وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر أهل المراتب لا تغيّر ولا

تبدل . والهند تمنع من شرب الشراب ، ويعنّفون شاربه ، لا على طريق التديّن ولكن تنزهاً عن أن يوردوا على عقولهم وما يغشيها ويزيلها عمّا وصفت لهم فيهم ، وإذا صحّ عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه ، إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط ، وربما يسمعون السماع والملاهي ، ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل في الناس أفعالاً مرتبة من ضحك وبكاء . وربما يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم ، فتطرب الرجال لطرب الجواري .

رحلة المسعودي إلى آل الصين والمقارنة بين أهل الصين وبين العرب قبل الإسلام

(مروج الذهب ١/١٣٦ ـ ١٣٧)

. . . ودينهم دين من سلف ، وهي ملة تدعى السحينّة ، عباداتهم نحواً من عبادات قريش قبل مجيء الإسلام ، يعبدون الصور ، ويتوجهون نحوها بالصلوات ، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق ، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قبلة ، والجاهل منهم ومن لا علم له يشرك الأصنام بالهه الخالق ، ويعتقدهما جميعاً ، وأن عبادتهم الأصنام تقربهم إلى الله زلفى ، وأن منزلتهم في العبادة تنقص من عبادة البارىء لجلالته وعظمته وسلطانه . وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة إليه . وهذا الدين كان بدء ظهوره في خواصهم من الهند لمجاورتهم إياهم ، وهو رأي الهند في العالم والجاهل على حسب ما ذكرنا في أهل الصين . ولهم آراء ونحل حدّثت عن مذاهب الثنوية وأهل الدهر ، فتغيّرت أحوالهم ، وبحثوا وتناظروا إلّا أنهم ينقادون في جميع أحكامها إلى ما نصَب لهم من الشرائع المقدمة .

وملوك الصين ذوو آراء ونحل ، إلّا أنهم مع اختلاف أديانهم

غيـر خـارجين عن قضيـة العقـل والحق في نصب القضـاة والحكام ، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك .

وأهل الصين شعوب وقبائل ، كقبائل العرب وأفخاذها تشعبها في أنسابها ، ولهم مراعاة لذلك ، وحفظ له ، وينسب الرجل منهم إلى خمسين أب إلى أن يتصل بعابور ، وأكثر من ذلـك وأقل ، ولا يتزوج أهل كل فخذ من فخذهم ، مثال ذلك أن يكون الرجل من مضر فيتزوج في ربيعة ، أو من ربيعة فيتزوج في مضر ، أو في كهلان فيتزوج في حِمْير ، أو حِمير فيتزوج من كهلان ، ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية ، وأنه أصح للبقاء ، وأتم للعمر ، وأسباباً يذكرونها نحو ما ذكرنا .

ليلة الغطاس في مصر

(مروج الذهب ١/٣٤٣ ـ ٣٤٤)

وللليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها ، لا ينام الناس فيها ، وهي ليلة إحدى عشرة تمضي من طوبة وستة من كانون الثاني .

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر ، والأخشيد محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل ، والنيل يطيف بها وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر النيل في تلك الليلة مئو آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط ، لا يتناكدون الحضور ، ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المأكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف وهي أحسن ليلة تكون بمصر . وأشملها ذلك أمان من المرض ومبرىء للداء .

رحلة إلى مصر

(مروج الذهب ١/ ٣٣٩ ـ ٣٤١)

قال المسعودي : ذكر الله جلّ ثناؤه مصر في مواضع من كتابه ، فقال عز وجل ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر ﴾ ، وقال ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ ، وقال تعالى ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً ﴾ وقال ﴿ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ .

ووصف بعض الحكماء مصر فقال : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء . فأما اللؤلؤة البيضاء ، فإن مصر في شهر أبيب ـ وهو تموز ـ ومَسْرى ـ وهو آب ـ وتوت ـ وهو أيلول ـ يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها على روابي وتلال مثل الكواكب ، قد أحاطت المياه بها من كل وجه ، فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض إلاّ في الزوارق . وأما المسكة السوداء ، فإن في شهر بابه ، وهو تشرين الأول ، وهاتور ، وهو تشرين الثاني ، وكيهك ، وهو كانون الأول ، ينكشف الماء عنها ، وينضب عن أرضها فتصير أرضاً سوداء ، وفيها تقع الزراعات ، وللأرض روائح طيبة تشبه روائح

المسك . وأما الزمردة الخضراء ، فإن في شهر طوبة ، وهو كانون الثاني ، وأمشير وهو شباط ، وبرمهات ، وهو آذار ، تلمح ويكثر عشبها ونباتها فتصير كالزمردة الخضراء . وأما السبيكة الحمراء ، فإن في شهر برمودة ، وهو نيسان ، وبشنس ، وهو آيار ، وبؤونة ، وهو حزيران ، يبيض الزرع ويتورد العشب فهو كسبيكة الذهب منظراً ومنفعة .

ومصر من سادات القرى ورؤساء المدن ، قال الله تعالى حاكياً عن فرعون : ﴿ **أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون** ﴾ . وقال عز وجل حاكياً يوسف عليه السلام ﴿ **اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** ﴾ وهي مصر . وليس في أنهار الدنيا نهر يُسمى بحراً ويمّاً غير نيل مصر لكبره واستبحاره . وقد قدّمنا فيما سلف، من كتابنا الخبر عن جبل القمر الذي بدأ النيل منه وما يظهر من تأثير القمر عند زيادته ونقصانه من النور والظلام في البدر والمحاق .

وقد روي عن زيد بن أسلح في قوله تعالى : ﴿ **فإن لم يصبها وابل فطل** ﴾ . قال : هي مصر إن لم يصبها وابل زكت ، وإن أصابها مصر ضعفت .

وقال بعض الشعراء يصف مصر ونيلها :

مصر ومصر شأنها عجيب   ونيلها تجري به الجنوب

وهي مصر ، واسمها كمعناها ، وعلى اسمها سميت الأمصار ، ومنه اشتق هذا الاسم عند علماء المصريين .

وصف الأرض

(مروج الذهب ١/٨٦)

قسّمت الحكماء الأرض إلى جهة المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، وقسموا ذلك إلى قسمين : مسكون ، وغير مسكون ، وعامر ، وغير عامر . وذكروا أن الأرض مستديرة ، ومركزها في وسط الفلك ، والهواء محيط بها من كل الجهات ، وأنها عند فلك البروج بمنزلة النقطة ، وأخذوا عمرانها من حدود الجزائر الخالدات في بحر أوقيانوس الغربي ، وهي ستة أجزاء عامرة إلى أقصى عمران الصين ، فوجدوا ذلك اثنتي عشرة ساعة ، فعلموا أن الشمس إذا غابت في أقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة المذكورة التي في بحر أوقيانوس الغربي ، وإذا غابت في هذه الجزائر كان طلوعها في أقصى الصين ، وذلك نصف دائرة الأرض ، وهو طول العمران الذي ذكروا أنهم وقفوا عليه ، ومقداره من الأميال التي عملوا عليها في مساحة دور الأرض ، ثم نظروا إلى العروض ، فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية الشمال ينتهي إلى جزيرة تولى التي في بريطانيا ، حيث يكون طول النهار الأطول عشرين ساعة .

وذكروا أن موضع خط الاستواء من الأرض يقطع فيما بين المشرق والمغرب في جزيرة بين الهند والحبش من ناحية الجنوب ، فيعرض ما بين الشمال والجنوب في النصف ممّا بين الجزائر العامرة وأقصى عمران الصين ، وهو قبة الأرض المعروفة بما ذكرنا ، ويكون العرض من خط الاستواء إلى جزيرة تولى قريباً من ستين جزءاً ، وذلك سدس دائرة الأرض ، إذا ضرب هذا السدس الذي هو مقدار العرض في النصف الذي هو مقدار الطول فإن مقدار ما يظهر من العمران من ناحية الشمال مقدار نصف سدس دائرة الأرض .

فصول السنة وما لكل فصل من المنازل

(التنبيه والإشراف ص ١٣)

الأزمنة أربعة : الربيع ، والصيف ، والخريف ، والشتاء . فالزمان الأول الربيع ، وهو طبيعة الدم حار ورطب ، مدته ثلاثة وتسعون يوماً وثلاث وعشرون ساعة وربع ساعة ، وذلك من عشر تبقى من آذار إلى ثلاثة وعشرين يوماً تخلو من حزيران ، وهو من نزول الشمس أول دقيقة من الحمل . وهو الاستواء الربيعي إلى دخولها أول دقيقة من السرطان ، وهو المنقلب الصيفي .

والزمان الثاني : الصيف وهو حار يابس ، سلطانه المرة السوداء ، مدته اثنان وتسعون يوماً وثلاث وعشرون ساعة وثلث ساعة ، وذلك من ثلاثة وعشرين يوماً تمضي من حزيران إلى أربعة وعشرين تمضي من أيلول ، وهو من دخول الشمس أول دقيقة من السرطان إلى دخولها أول دقيقة من الميزان .

والزمان الثالث : الخريف ، وهو بارد يابس ، سلطانه المرة السوداء ، مدته ثمانية وثمانون يوماً ، وسبع عشرة ساعة وثلث خمس ساعة . وذلك من أربعة وعشرين يوماً تمضي من أيلول

إلى اثنين وعشرين يوماً تخلو من كانون الأول وذلك من نزول الشمس أول دقيقة من الميزان ، وهـو الاستواء الخـريفي إلى نزولها أول دقيقة من الجدي وهو المنقلب الشتوي .

والزمان الرابع : الشتاء ، وهو بـارد رطب سلطانه البلغم ، مدته تسعة وثمانون يوماً وأربع عشرة ساعـة من تسع تبقى من كانون الأول إلى واحد وعشرين يوماً تخلو من آذار ، وذلك من دخول الشمس أول دقيقة من الجدي إلى نزولها أول دقيقة من الحمل .

فانقسام فصول السنة بالأزمان الأربعة إنما هو بحركة الشمس في الجملة .

قال المسعودي : فقد تبيّن بما ذكرنا أن مدة زمان الربيع مسير الشمس في ثلاثة أبراج هي السرطان والأسد والسنبلة ومدة زمان الخريف مسير الشمس في ثلاثة أبراج وهي الميزان والعقـرب والقوس ، ومدة زمان الشتاء مسير الشمس في ثلاثة أبراج وهي الجدي والدلو والحوت .

ذكر الرياح الأربع ومهابها وأفعالها وما اتصلّ بذلك

(التنبيه والإشراف ص ١٦)

تنازع الناس في الرياح الأربع ومهابها وطباعها ، فقال فريق منهم الرياح أربع ، شمال وجنوب وصبا ودبور ، الصبا من المشرق ، والدبور من المغرب والشمال من تحت جدي الفرقدين ، والجنوب من تحت جدي سهيل . فالشمال باردة يابسة وهي ما هبّت من ناحية الجزبيّ وهو الشمال وأشكالها من البروج والكواكب والأمهّات وما يشاكل ذلك ، ويضاف إلى البرد واليبس . والجنوب حارة رطبة وهي التي تهب من القبلة وأشكالها لما وصفت مما يضاف إلى الحرارة والرطوبة ، والدبور باردة رطبة ، وهي التي تهب من المغرب وكذل أشكالها . والصبا حارة يابسة وهي التي تهب من المشرق وأشكالها مما هو مضاف إلى الحرارة واليبوسة .

قال المسعودي : وذهب فريق آخر من حكماء الأمم وغيرهم إلى أن الصبا هي القبول ، وهي ما هبّ من مطلع الشمس ، والدبور التي تهب من المغرب من دبر ما استقبل المشرق ، فلذلك سُمّيت الدبور ، والشمال تهب من يمينك إذا استقبلت

المشـرق ، وقد ذكـرت العرب ذلـك في أشعارهـا ، قال أبـو صخرالهذلي :

إذا قـلت هـذا حيـن أسـلو يـهـيـجـنـي
نسيـم الصبـا من حـيث يـطلع الـفجـر

وقال هدبة العذري وهو يومئذ بالمدينة مسجون :

ألا ليت الرياح مسخرات بحاجتنا تباكر أو تؤوب
فتخبرنا الشمال إذا أتتنا وتخبر أهلنا عنا الجنوب

ذكر الأقاليم السبعة وقسمتها وحدودها
وما قيل في طولها وعرضها وما اتصل بذلك

(التنبيه والإشراف ٢٩ ـ ٣٠)

كل ما كان من الأرض معموراً فهو مقسوم بسبعة أقسام ، يسمى كل قسم منها إقليماً . وقد تنازع من عني من حكماء الأمم وفلاسفتهم بعلم الهندسة ومساحة الأرض في هذه الأقاليم السبعة ، أفي الشمال والجنوب ، أم في الشمال دون الجنوب ؟ فذهب الأكثرون إلى أن ذلك في الشمال دون الجنوب لكثرة العمارة في الشمال وقلتها في الجنوب . ورأى قوم أن القدماء إنما قصدوا لقسمة الأقاليم السبعة في الجانب الشمالي من خط معدل النهار ، ولم يقسموا في الجنوب شيئاً لقلة قدر العمارة في الجنوب عن الخط .

وذهب هرمس في متبعيه من المصريين وغيرهم إلى أن في الجنوب سبعة أقاليم ، كما هي في الشمال ، وكان يجعل قسمة أقاليم العمران من الشمال مدوّرة ، فيجعل الإقليم الرابع ، وهو إقليم بابل واسطاً لها وستة دائرة حوله ، وأن كل إقلم سبعمائة فرسخ في مثله . فالإقليم الأول الهند ، والثاني الحجاز والحبشة ، والثالث مصر وإفريقية ، والرابع بابل والعراق ،

والخامس الروم ، والسادس ياجوج وماجوج ، والسابع يوماريس والصين .

ويبتدىء جمعها من المشرق ممّا يمر ببلاد الصين وغيرها ، فحدّ الإقليم الأول البحر مما يلي المشرق ، والثاني البحر مما يلي الحجاز ، والثالث الديبل من ساحل المنصورة من أرض السند ، والرابع حد الإقليم السابع مما يلي الصين . أطول ساعات نهاره ثلاث عشرة ساعة ، وحد الإقليم الثاني في البحر مما يلي عُمان إلى الشحر ، والأحقاف إلى عدن أبين إلى جزائر الزنج والحبشان ، وأطول ساعات نهاره ثلاث عشرة ساعة ونصف . وحدّ الإقليم الثالث ينتهي إلى الحبشة مما يلي الحجاز إلى بحر الشام الذي بين مصر وأرض الشام إلى وسط البحر . وحدّ الإقليم الرابع الثعلبية ، والثاني وسط نهر بلخ ، والثلث خلف نصيبين باثني عشر فرسخاً من ناحية سنجار . والرابع وراء الديبل من ساحل المنصورة من بلاد السند بستة فراسخ ، أطول ساعات نهاره أربع عشرة ساعة ونصف ساعة . وحد الإقليم الخامس بحر الشام إلى أقصى أرض الروم ، مما يلي البحر إلى حد الإقليم الرابع مما يلي نصيبين . أطول ساعات نهاره خمس عشرة ساعة . وحد الإقليم السادس من الصين إلى حد الإقليم من الصين إلى حد الإقليم الخامس إلى البحر مما يلي المشرق . أطول ساعات نهاره خمس عشرة ساعة ونصف . وحد الإقليم السابع أرض الهند إلى حد الإقليم

الرابع ، إلى حد الإقليم السادس إلى البحر . أطول ساعات نهاره ست عشرة ساعة .

وفي كتاب مارينوس أن مساحة هذه الأقاليم في الطول ثمانية وثلاثون ألفاً وخمسمائة فرسخ في عرض ألف فرسخ وسبعمائة وخمسة وسبعين فرسخاً . وقد أنكر ذلك على مارينوس جماعة ممّن تقدم وتأخر .

ذكر تنازع الناس في المد والجزر وجوامع مما قيل في ذلك

(مروج الذهب ١/١١٣ ـ ١١٥)

المدّ : مضي الماء في فيحته وسيحته وسنن جريته . والجزر : رجوع الماء على ضد سنن مضيه وانكشاف ما مضى عليه في هيجه ، وكذلك كبحر الحبش الذي هو الصيني والهندي وبحر البصرة وفارس المقدم ذكره قبل هذا الباب . وذلك أن البحار على ثلاثة أنواع : منها ما يتأتّى فيه الجزر والمد ويظهر ظهوراً بيّناً يتبين فيه الجزر والمد ويكون خفيفاً مستتراً ، ومنها ما لا يجزر ولا يمدّ .

فالبحار التي لا يكون فيها الجزر والمد امتنع منها الجزر والمد لعلل ثلاث . وهي على ثلاثة أصناف : فأولها ما يقف الماء فيه زماناً وتقوى ملوحته ، وتتكيّف فيه الأرياح ، لأنه ربما صار الماء إلى بعض المواضع ببعض الأسباب فيصير كالبحيرة وينقص في الصيف ويزيد في الشتاء ويتبيّن فيه زيادة ما ينصب فيه من الأنهار والعيون ، والصنف الثاني البحار التي تبعد عن مدار القمر ومسافاته بعداً كثيراً ، فيمتنع منه المد والجزر ، والصنف الثالث المياه التي يكون الغالب على أرضها التخلخل

لأنه إذا كانت أرضها مخلخلة نفذ الماء فيها إلى غيرها من البحار وتخلخل ، وأنشبت الرياح الكائنة في أرضها أولاً فأولاً ، وغبت الرياح عليها ، وأكثر ما يكون هذا في ساحل البحار والجزائر وقد تنازع الناس في علة المدّ والجزر ، فمنهم من ذهب إلى أن ذلك من القمر لأنه مجانس للماء ، وهو يسخّنه فينبسط ، وشبّهوا ذلك بالنار إذا اسخنت ما في القدر وأعلته ، وأن الماء يكون فيها على قدر النصف أو الثلثين ، فإذا غلا الماء انبسط في القدر وارتفع حتى يفور فتضاعف كميته في الحس ، وينقص في الوزن ، لأن من شرط الحرارة أن تبسط الأجسام ، ومن شرط البرودة أن تضمها . .

وقالت طائفة أخرى : لو كان الجزر والمد بمنزلة النار إذا اسخنت الماء الذي في القدر وبسطته فيطلب أوسع منها فيفيض ، حتى إذا خلا قعره من الماء طلب الماء بعد خروجه ومنه عمق الأرض بطبعه فيرجع اضطراراً ، بمنزلة رجوع ما يغلي من الماء في المرجل والقمقم إذا فاض وتتابعت أجزاء النار عليه بالحمة لكان في الشمس ، ويجزر مع غيبتها ، فزعم هؤلاء أن علة الجزر والمد في الأبحر تتولد من الأبخرة التي تتولد من بطن الأرض ، فإنها لا تزال حتى تكثف وتكثر فتدفع حينئذ ماء هذا البحر لكثافتها ، فلا تزال كذلك حتى تنقص موادها من أسفل ، فإذا انقطعت موادها تراجع الماء حينئذ إلى مقر البحر ، وكان الجزر من أجل ذلك ، والمد ليلاً ونهاراً ، وشتاء وصيفاً ، وفي

غيبة القمر وفي طلوعه ، وكذلك في غيبة الشمس وطلوعها .

وذهب آخرون من أهل الديانات أن كل ما لم يعرف له من الطبيعة مجرى ولا يوجد له فيها قياس فهو فعل الألة يدل على توحيد الله عز وجل وحكمته ، فليس للمد والجزر علة في الطبيعة البتة ، ولا قياس .

وقال آخرون : ما هيجان ماء البحر إلّا كهيجان بعض الطبائع ، فإن صاحب الدم وصاحب الصفراء وغيرهما تهتاج طبيعته ثم تسكن ، وكذلك مواد تمدّها حالاً بعد حال ، فإذا قويت هاجت ، ثم تسكن قليلاً قليلاً حتى تعود .

وصف المسعودي لمسقط رأسه العراق

(مروج الذهب ٢/ ٦٥)

قال المسعودي : وأوسط الأقاليم الإقليم الذي ولدنا بـه ، وإن كانت الأيام أنأت بيننا وبينه وساحقت مسافتنا عنه ، وولّدت في قلوبنا الحنين إليه ، إذ كان وطننا ومسقطنا ، وهو إقليم بابل وقد كان هذا الإقليم عند ملوك الفرس جليلاً ، وقدره عظيماً ، وكانت عنايتهم إليه معروفة ، وكانوا يشتّون بالعراق ، وأكثرهم يصيّفون بالجبال ، وينتقلون في الفصول إلى الصرود من الأرض والحرور . وقد كـان أهل المـروءات في الإسلام كـأبي دلف القـاسم بن عيسى العجلي وغيره يشتـون في الحرورة ، وهـو العراق . ويصيّفون في الصرود وهي الجبال ، وفي ذلك يقول أبو دلف :

وإني امرؤ كرويّ الفعال أصيف الجبال وأشتو العراقا

وذلك لما خصّ به هذا الإقليم من كثرة مرافقـه ، واعتدال أرضـه ، وغضارة عيشـه ، ومادة الـوافدين إليـه ، وهما دجلة والفرات ، وعموم الأمن فيـه ، وبُعد الخـوف عنه ، وتـوسطه الأقاليم السبعة ، وقد كانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من

الجسد ، لأن أرضه من إقليم بابل الذي تشعّبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب ، وبذلك اعتدلت ألوان أهله واقتدرت أجسامهم ، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة ، وسواد الحبشة ، وغلظ البربر ومن جفا من الأمم ، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار وكما اعتدلوا في الجبلة ، كذلك لطفوا في الفطنة ، والتمسك بمحاسن الأمور ، وأشرف على هذا الإقليم مدينة السلام ، ويعزّ عليّ ما أصارتني إليه الأقدار من فراق المصر الذي عن بقعته فصلنا ، وفي قاعته تجمعنا ، لكنه الزمن الذي من شيمته التشتيت ، والدهر الذي من شروطه الإبانة .

أسباب اختيار العرب للبوادي سكناً لهم

(مروج الذهب ٢/١١٨ - ١٢٠)

ذكرت طائفة أن أول ذلك أن الناس لما نضب عنهم الطوفان الـذي أهـلك الله بـه الأرض في زمـن نـوح على نبيّنـا وعليه السـلام ، تفـرق من نجـا في طلب البقـاع الخصبة المتخيّرة ، وانفرد من انفرد بانتجاع الأرضين وحلول البيداء ، واستوطن آخرون بقاعاً تخيّروها ، كمن ابتنى إقليم بـابل من النبط ، ومن حلّه من ولـد حام بن نـوح عليه السـلام ، ومـع نمـرود بن كنعان من سنحـاريب بن تمروز الأول بن كـوش بن حـام بن نوح ، وذلـك حين تملّك على إقليم بـابـل من قبـل الضحاك ، وهو بيوراسف . وكمن حلّ بلاد مصر من ولد حام على حسب ما ذكرنا في باب مصر وأخبارها ، البربر وهم هوارة وزناته وضريسة ومغيلة وورفجومه ونفزة وكتامة ولواته ، ومزاته ، ونفوسه ولقطة وصديقة ومصمودة وزنارة وعمارة وقالمة ووارقـة وأتيتة وبابه وبنو سنجون وأركنة وهي من زناته وبنو كلان وبنـو مصدريان وبنو افياس وزبجن وبنو منهوساً وصنهاجة ومن سكن من أنواع الأحابيش وغيرهم الغابة المعروفة بغابة العافريم سون

ورعوين والعورفة ويكسوم ومنهم من سكن غير الغابة واتسع في هذه البلاد من المغرب . . .

ورأت العرب أن جَوَلان الأرض وتخيّر بقاعها على الأيام أشبه بأولي العز وأليق بذوي الأنفة ، وقالوا : لنكون محكمين في الأرض ونسكن حيث نشاء أصلح من غير ذلك ، فاختاروا سكنى البدو من أجل ذلك .

وذكر آخرون أن القدماء من العرب لما ركّبهم الله من سمو الأخطار ، ونبل الهمم والأقدار . وشدة الأنفة ، والحمية من المعرة ، والهرب من العار ، بدأت التفكير في المنازل ، والتقدير للمواطن ، فتأملوا شأن المدن والأبنية فوجدوا فيها معرة ونقصاً ، وقال ذو المعرفة والتمييز منهم : أن الأرضين تمرض كما تمرض الأجسام ، وتلحقها الآفات ، والواجب تخيّر المواضع بحسب أحوالها من الصلاح ، إذ الهواء ربما قوي فأضرّ بأجسام سكانه ، وأحال أمزجة قطانّه .

وقال ذوو الآراء منهم : أن الأبنية والتحويط حصرٌ عن التصرف في الأرض ، ومقطعة عن الجَوَلان ، وتقييد للهمم ، وحبسٌ لما في الغرائز من المسابقة إلى الشرف ، ولا خير في اللبث على هذه الحالة ، وزعموا أيضاً أن الأبنية والأطلال تحصر الغذاء ، وتمنع اتساع الهواء ، وتسد سروجه عن المرور وقذاه عن السلوك . فسكنوا البر الأفيح الذي لا يخافون فيه من

حصر ومنازلة ضرّ ، هذا مع ارتفـاع الأقذاء وسمـاحة الأهـواء واعتزال الوباء ، ومع تهذيب الأحلام في هذه المواطن ، ونقاء القـرائح في التنقـل في المساكن ، مـع صحة الأمـزجة وقـوة الفطنة ، وصفاء الألوان ، وصيانة الأجسام ، فإن العقول والآراء تتولد من حيث تولد الهواء ، وطبع الهواء الفضاء . وفي هـذا الأمن من العاهات والأسقام والعلل والآلام .

فآثرت العرب سكن البوادي والحلول في البيداء ، فهم أقوى الناس جمعاً واشدّهم احلامـاً ، واصحهم اجسامـاً ، واعزهم جاراً ، وأحماهم ذماراً ، وأفضلهم جواراً ، وأجودهم فطناً ، لما أكسبهم إياه صفاء الجو ونقاء الفضاء .

حديث المسعودي عن الموسيقى

(مروج الذهب ١/٣٢١)

والتعاليم الأربعة ، أعني : الارتماطيقي ، وهو علم الأعداد ، والجومطريقي ، وهو علم المسافة والهندسة ، والأسترنوميا ، وهو علم النجوم ، والموسيقى ، وهو علم تأليف اللحون .

وكان من شريف ما تركته المعرفة بعلم الموسيقى ، لأنه غذاء للنفس ، ومطرب لها ، وملهيها .

تبتهج عند سماعه ، وتحن إلى تأليف أوضاعه ، وقد نطقت الحكماء بشرفه ، ونبّهت على نفاسة محله ، فقال الاسكندر : من فهم الألحان استغنى عن سائر اللذات . وقد قالت الفلاسفة : إن النغم والأغاني فضيلة شريفة كانت تعذرت عن المنطق ليست في قدرته ، فلم يقدر على إخراجها ، فأخرجتها النفس ألحاناً ، فلما أظهرتها سرّت بها وعشقتها وطربت إليها .

ورتّبت الحكماء الأوتار الأربعة بإزاء الطبائع الأربع ، فجعلوا الزير بإزاء المرة الصفراء ، والمثنى بإزاء الدم ، والمثلث بإزاء البلغم ، والبم بإزاء المرّة السوداء .

مناقشة المسعودي لآراء أفلاطون والفلاسفة حول طبيعة النفس

(مروج الذهب ٢ / ٢٤٩)

ورأيت على باب مجمع الصابئة بمدينة حران مكتوباً على مدقة الباب بالسريانيّة قولاً لأفلاطون ، فسره مالك بن عقبون وغيره منهم وهو « من عرف ذاته تأله » ، وقد قال أفلاطون « الإنسان نبات سماوي ، والدليل على هذا أنه شبيه بشجرة منكوسة أصلها إلى السماء وفروعها في الأرض » . ولأفلاطون وغيره ممن سلك طريقه في النفس الناطقة كلام كثير في هل النفس في البدن ، أو البدن في النفس ، كالشمس أهي في الدار أو الدار في الشمس ، وهذا قول يتغلغل بنا الكلام فيه إلى الكلام في تنقل الأرواح في أنواع الصور .

وقد تنازع أهل هذه الآراء ممن قصد هذه المقالة في النقلة إلى وجهين ، فطائفة من الفلاسفة القدماء اليونانيين والهند ممّن لم يثبت كلامه منزلاً ولا نبياً مرسلاً منهم أفلاطون ومن يمّم طريقهم ، حكي عنهم أنهم زعموا أن النفس جوهر ليس بجسم ، أنها حية عالمة مميزة لأجل ذاتها وجوهرها وأنها هي المدبرة للأجسام المركبة من طبائع الأرض المتضادة ، وغرضها

في ذلك أن تقيمها على العدل وما تتم به السياسة المستقيمة والنظام المتسق وتردها من الحركة المضطربة إلى المنتظمة وزعموا أنها تلذ وتألم وتموت ، وموتها عندهم انتقالها من جسد إلى جسد بتدبير وبطلان ذلك الشخص الذي فسد ووصف الموت ، لأن شخصها يفسد ولأن جوهرها ينتقل .

وزعموا أنها عالمة بذاتها وجوهرها ، عالمة بالمعقولات من ذاتها وجوهرها ، وفيها يقول علم المحسوسات من جهة الحس ، ولأفلاطون وغيره في هذه المعاني كلام يطول ذكره ، ويعجز عن وصفه وإظهاره لاعتياصه وغموضه ، وكذلك صاحب المنطق وفيثاغورس وغيرهما من الفلاسفة ممّن تقدم وتأخر ، لأن الطالب لعلم هذه الأشياء والإحاطة بفهمها وبلوغ غايتها لا يدرك ذلك ، لما نصبوا من الكتب ورتّبوا من التصنيف للعلوم المؤدية إلى معرفة علومهم وأغراضهم التي إليها قصدوا في كتبهم ، وهي معرفة الألفاظ الخمس وهي : الجنس ، والفصل ، والنوع ، والخاصة ، والعرض . ثم معرفة المقولات ، وهي عشرة : الجوهر ، والكمية ، والكيفية والإضافة ـ وهي النسبة ـ وهذه أربع بسائط ، والست الأُخر مركّبات ، وهي : الزمان والمكان ، والجدة ـ وهي الملك ـ والوضع ، والفاعل ، والمنفعل ، ثم ما بعد ذلك مما يترقى فيه الطالب إلى أن ينتهي إلى عالم ما بعد الطبيعة من معرفة الأول والثاني .

محاولات لوصل بحر الروم (البحر المتوسط) بالبحر الأحمر

(مروج الذهب ٢ / ٢٦٣)

وقد كان بعض من ملك من الروم حفر بين القلزم وبحر الروم طريقاً ، فلم يتأتَّ له ذلك ، لارتفاع القلزم ، وانخفاض بحر الروم ، وأن الله عز وجلّ قد جعل ذلك حاجزاً على حسب ما أخبر في كتابه ، والموضع الذي حفره ببحر القلزم يعرف بذنب التمساح على ميل من مدينة القلزم ، عليه قنطرة عظيمة يجتاز عليها من يريد الحج من مصر ، وأجرى خليجاً من هذا البحر إلى موضع يعرف بالهامة ، ضيعة لمحمد بن علي الماذراني من أرض مصر في هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ـ فلم يتأت له اتصال ما بين بحر الروم وبحر القلزم .

وحفر خليجاً أخر مما يلي بلاد تنيس ودمياط وبحيرتهما ، ويعرف هذا الخليج بالزبر والخبية ، واستمر الماء في هذا الخليج من بحر الروم وبحيرة تنيس إلى موضع يعرف بنعنعان حتى اتصل بنحو بلاد الهامة ، فكانت المراكب تدخل من بحر الروم إلى نحو من هذه القرية ومن بحر القلزم في آخر ، ثم

ارتدم ذلك على تطاول الدهور وملأته السواقي من الرمل وغيره .

وقد رام الرشيد أن يوصل بين هذين البحرين مما يلي النيل من أعالي مصبه من نحو بلاد الحبشة وأقاصي صعيد مصر فلم تتأتّ له قسمة ماء النيل ، فرام ذلك مما يلي بلاد الفرما نحو بلاد الفرما نحو بلاد تنيس على أن يكون مصب بحر القلزم إلى البحر الرومي ، فقال يحي بن خالد ، يخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف ، وذلك أن تنتهي من بحر الروم إلى بحر الحجاز فتطرح سرايا مما يلي جدّة ، فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة على ما ذكرنا ، فامتنع عن ذلك .

وقد حكي عن عمرو بن العاص ـ حين كان بمصر ـ أنه رام ذلك فمنعه منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك لما وصفنا من فعل الروم وسراياهم وذلك في حال ما افتتحها عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وآثار الحفر بين هذين البحرين فيما ذكرنا من المواضع والخلجان على حسب ما شرعت فيه الملوك السالفة طلباً لعمارة الأرض وخصب البلاد وعيش الناس بالأقوات وأن يحمل إلى كل بلد ما ليس فيه من الأقوات وغيرها من ضروب المنافع وضروب المرافق ، والله تعالى أعلم .

آثار مصر الفرعونية

(مروج الذهب ١/٣٦٧ ـ ٣٦٩)

قال المسعودي : وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن أغري بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة فيه وصف موضع ببلاد مصر ، على أذرع يسيرة من بعض الأهرام المقدّم ذكرها بأن فيها مطلباً عجيباً ، فأخبروا الأخشيد محمد بن طغج بذلك فأذن لهم في حفره ، وأباحهم استعمال الحيلة في إخراجه .

فحفروا حفراً عظيماً ، إلى أن انتهوا إلى أزج وقباء وحجارة مجوّفة في صخر منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء . والصور مختلفة : منها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ، ومنها ما ووجوهها ذهب وفضة . فكسروا بعض تلك التماثيل ، فوجدوا في أجوافها رمحاً بالية وأجساماً فانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبراني وغيرها من الآلات

من المرمر والرخام ، وفيه نوع من الطلاء متروك في ذلك الاناء . والطلاء دواء مسحوق وأخلاط معمولة لا رائحة لها ، فجعل منه على النار ففاح منه روائح طيبة مختلفة ـ لا تعرف في نوع من الأنواع التي للطيب وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة من فيه الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم . وبإزاء كل تمثال من هذه التماثيل تمثال من الحجر المرمر أو من الرخام الأخضر على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور ، وعليها أنواع من الكتابات لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملل . وزعم قوم من ذوي الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقد من الأرض ، أعني أرض مصر ، أربعة آلاف سنة . وفيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا بنصارى . ولم يؤدهم الحفر إلّا إلى ما ذكرنا من هذه التماثيل ، وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .

وصف الواحات

(مروج الذهب ٢ / ٢٦)

قال المسعودي : وأما بلاد الواحات ، وهي بين بلاد مصر والاسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحابش والمغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم ، فقد ذكرنا جملاً من أخبارها وكيفية العمران بها والخواص في أرضها ، فيما سلف من كتبنا ، وبها أرض شبية وزاجية وعيون حامضة وغير ذلك من العلوم . وصاحب الواحات في وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، عبد الملك بن مروان وهو رجل من لوانه ، إلّا أنه مرواني المذهب ، ويركب في ألوف من الناس خيلاً ورحلاً ونجباً ، وبينه وبين الأحباش نحو من ستة أيام ، وكذلك بينه وبين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة . وفي أرضه خواص وعجائب ، وهو بلد قائم بنفسه ، غير متصل بغيره ، ولا مفتقر إليه ، ويحمل من أرضه التمر والزبيب والأعناب .

وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الأخشيد محمد بن طغج ، وذلك سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وسألته

عن كثير من أخبار بلدهم وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم ، وكذلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم ، وأخبرني هذا الرجل عمّا بأرضهم من الشب وأنواع الزاج ، وما يحمل من بلادهم ، وما بأرضهم من أنواع العيون الحامضة ، وغير ذلك من المياه المختلفة الطعوم .

مرحلة المسعودي إلى وسط إفريقية

(مروج الذهب ٢ / ٤ وما بعدها)

قال المسعودي : ولما تفرق ولد نوح في الأرض ، سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر . ثم افترقوا ، فسارت منهم طائفة ميمنة بين المشرق والمغرب ، وهم النوبة والبجة والزنج ، وسار فريق منهم نحو المغرب . وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم ومركة وكوكو وغانة وغير ذلك من أنواع السودان ، والدمادم . ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب ، فصارت الزنج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج ، وقدمنا فيما سلف عند ذكرنا للبحر الحبشي ، الخليج البربري وما عليه من أنواع السودان واتصالهم في ديارهم إلى بلاد الدهلك والزيلع وناصع . وهؤلاء القوم أصحاب جلود النمور الحمر ، وهي لباسهم ، ومن أرضهم تحمل إلى بلاد الإسلام ، وهي أكبر ما يكون من جلود النمورة وأحسنها للسروج . وبحر الزنج والأحابش هو عن يمين بحر الهند ، وإن كانت مياههما متصلة ، ومن أرضهم يحمل الذبل من ظهور السلاحف وهو الذي تتخذ منه الأمشاط كالقرون ، وأكثر ما تكون الدابة المعروفة بالزرافة في أرضهم .

والزرافة عجيبة الفعل في إلفها وتوددها إلى أهلها ، وهي

كالفيلة ، منها وحشية ، ومنها مستأنسة أهلية ، مع من قدمنا ذكره من الزنوج والأجناس من الأحباش الذين صاروا عن يمين النيل ، ولحقوا بأسافل البحر الحبشي .

وقطعت الزنج دون سائر الأحباش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذي يصب إلى بحر الزنج ، فسكنت الزنج في ذلك الصقع واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة ، وهي أقاصي بلاد الزنج ، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين ، وهي غاية مقاصدهم في أسافل بحر الزنج ، كما أن أقاصي بحر الصين متصل ببلاد السيلي ، وقد تقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب . وكذلك أقاصي بحر الزنج هو بلاد سفالة ، وأقاصيه بلاد الواق واق ، وهي أرض كثيرة الذهب ، كثيرة العجائب ، خصبة حارة . واتخذها الزنج دار مملكة ، وملكوا عليهم ملكاً سمّوه وقليمي ، وهي سمة لسائر ملوكهم في سائر الأعصار على ما قدمنا آنفاً ، ويركب وقليمي . . وهو يملك ملوك سائر الزنج في ثلاثمائة ألف فارس ، ودوابهم البقر ، وليس في أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل ، ولا يعرفونها وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد ، ولا غيرهم من الأحابش . ومنهم أجناس محددة الأسنان يأكل بعضهم بعضاً . ومساكن الزنج من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل إلى بلاد سفالة والواق واق ، ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطنهم في الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ .

المصادر والمراجع

المصادر

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ).

ـ الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية بيروت.

ابن تغري بردي : أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤) .

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٢٩ ـ ١٩٥٥.

ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي الجوزي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) .

ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (الأجزاء ٥ ـ ١٠) .
حيدر آباد الدكن ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨ هـ/١٩٣٨ ـ ١٩٣٩م.

ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا العلوي (ت ٧٠٩ هـ) .

ـ الفخري في الآداب السلطانية (تاريخ الدول الإسلامية) .
دار صادر بيروت ١٩٦٠ م .

ابن العبري: أبو الفرج غريغوريوس بن هارون الملطي (ت ٦٧٥ هـ).
ـ تاريخ مختصر الدول تحقيق انطوان صالحاني اليسوعي.
المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٨.
ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي بن عبد العماد (ت ١٠٨٩ هـ).
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مطبعة القدسي القاهرة ١٩٣١ م.

ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤ هـ).
ـ البداية والنهاية، مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٩.

ابن مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب المعروف بمسكويه (ت ٤٢١ هـ).
ـ كتاب تجارب الأمم، مطبعة التمدن الصناعية بمصر ـ القاهرة ١٩١٤ ـ ١٩١٥.

التنوخي: أبو علي المحسن بن أبي القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داوود بن إبراهيم بن تميم التنوخي (ت ٣٨٤ هـ).
ـ جامع التواريخ المسمى نشوار المحاضرة وأخبار المحاضرة الجزء الأول باعتناء مرغليوث، مطبعة أمين هندية، القاهرة الجزء الثامن من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

مطبعة ابن زيدون دمشق ۱۹۳۰ والجزء الثاني مرغليوث ـ دمشق ۱۹۳۲ .

الجرجاني : علي بن محمد (ت ٨١٦ هـ) .
ـ التعريفات ، القاهرة ـ مطبعة السعادة ١٣٢٥ هـ.

حمزة الأصفهاني : حمزة بن الحسن (ت ٣٦٠ هـ) .
ـ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، منشورات مكتبة الحياة بيروت .

الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت ٤٦٣ هـ) .

ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٣١ .

الروذراوري : أبو شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين (ت ٣٨٩ هـ) .
ـ ذيل تجارب الأمم ، باعتناء آمدروز ـ مطبعة التمدن الصناعية، القاهرة ١٩١٦ .

الصابي : أبو الحسن الهلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون (ت ٤٤٨ هـ) .
ـ الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء. ت عبد الستار فراج ، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٨ .
ـ تاريخ الأمم والملوك دار الكتب العلمية بيروت .

عريب القرطبي : عريب بن سعد ، الكاتب القرطبي (ت ٣٦٩) .
ـ صلة تاريخ الطبري، بريل ـ لايدن ١٨٩١ .

القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية ١٩١٣ ـ ١٩١٩ .

الكندي : أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ) .
ـ كتاب الولاة وكتاب القضاة. ت روفن جست.
مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت ١٩٠٨ .

الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠ هـ) .
ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٠ .

الهمداني: محمد بن عبد الملك (ت ٥٢١ هـ) .
ـ تكملة تاريخ الطبري ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٩ .

اليعقوبي : أحمد بن واضح (ت ٢٨٤ هـ) .
ـ كتاب البلدان ، نشر دي غويه . بريل ـ لايدن ١٨٩٢ .

المراجع

حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي .

الدوري عبد العزيز : دراسات في العصور العباسية المتأخرة بغداد ١٩٥٢ .

روزنتال فرانتز : علم التاريخ عند المسلمين ـ دار العلم للملايين بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين .

لوبون غوستاف : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر .

متز آدم : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٧ .

مصطفى شاكر : التاريخ والمؤرخون العرب ، دار العلم للملايين ـ بيروت لبنان .

مرغليوث : دراسات عن المؤرخين العرب ، ترجمة حسين نصار ـ دار الثقافة بيروت .

فهرست الموضوعات